وممّا يلفت النّظر فى القول على لسان اللّعين لفظة الرّبّ ، ذات المعانى اللّطيفة من إفادة الخصوص والتّربية بالنّعم والآلاء وإذاعة جوّ الودّ والحنان والبهجة . كلّ ذلك من أجل أن يستدرج اللّعين آدم وحوّاء عليهما السّلام إلى الهاوية .

وممّا يلفت النّظر كذلك مجىء اسم الإشارة : ﴿ هذه ﴾ الّذى يدلّ على القرب. إنّ اللّعين قريبٌ كلّ القرب من الشّجرة ، وها هوذا يشير إليها : ﴿ ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة ﴾ وهل حدث للّعين شىءٌ من القرب مكانًا من الشّجرة ؟ لم يحدث شىء . وما دام اللّعين يتكلّم مع آدم وحوّاء عليهما السّلام وهو قريبٌ من الشّجرة فذلك معناه أنهما ليسا بعيدين عنه وبالتّالى هما ليسا بعيدين مكانًا من الشّجرة . ولم يكن قرب اللّعين مكاناً من الشّجرة إلاّ من أجل أن يقترب منها آدم وحوّاء عليهما السّلام وأن يتورّطا بعد ذلك فى المعصية بالأكل منها .

وممّا يلفت النّظر كذلك اختيار اللّعين سببين مغريين فى العادة لكلّ نفس . الملك والخلود : ﴿ إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ « وقرأ جمهور النّاس مَلَكين بفتح اللاّم . وقرأ ابن عبّاس ويحيى بن كثير والضّحّاك : ملكين ، بكسر اللاّم . ويؤيّد هذه القراءة قولُه تبارك وتعالى فى آيةٍ أخرى : ﴿ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾[1] وهذه الآية الكريمة هى العشرون بعد المائة من سورة طه . قال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشّيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ وبذلك يتبيّن أنّ معنى المُلْك يصحّ أن يفهم كذلك من القراءة بفتح اللاّم من : ملكين ، لما استقرّ فى النّفوس للملائكة من معانى الطّهر والسّموّ والخلود .

وفى معنى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ يقول ابن جرير الطّبريّ رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[2] : « يقول جلّ ثناؤه : وقال الشّيطان لآدم وزوجته حوّاء : ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة أن تأكلا ثمرها إلاّ لئلاّ تكونا ملكين . وأسقطت لا من الكلام لدلالة ما ظهر عليها ، كما أسقطت من قوله : يبيّن الله لكم أن تضلّوا ،

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٥/٤٥٨ وانظر تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨/١٠٤ .

والمعنى : يبيّن الله لكم أن لا تضلّوا . وكان بعض أهل العربيّة من أهل البصرة يزعم أنّ معنى الكلام : ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة إلاّ كراهة أن تكونا ملكين . كما يقال : إيّاك أن تفعل ، كراهية أن تفعل . أو تكونا من الخالدين فى الجنّة الماكثين فيها أبدًا فلا تموتا . والقراءة على فتح اللاّم بمعنى ملكين من الملائكة » .

ومن البيّن أنّ رأي البصريّين مرجوحٌ خاصّة مع تقدير لفظة : « كراهة » .

عرفنا من استخدام اسم الإشارة ﴿ هذه ﴾ الدّالّ على القرب فى القول : ﴿ ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة ﴾ قرب اللّعين مكانًا من تلك الشّجرة ، وذلك معناه أنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام لم يكونا بعيدين من الشّجرة لأنّ اللّعين القريب من الشّجرة غير بعيدٍ عنهما . وبما أنّ اللّعين قد تمكّن من استدراج آدم وحوّاء عليهما السّلام قريباً من الشّجرة مكانًا بالاستحواذ على نفسيهما عن طريق الإغراء بالأمنيّتين اللّتين تتطلّع إليهما كلّ نفس وهما الملك والخلود فقد بقى الجزء الآخر من المهمّة والأكبر وهو أن يزيل من نفسيهما حرج ارتكاب المعصية بالأكل من الشّجرة. وإلى هذا الجزء الآخر أشارت .

الآيـــة رقم (٢١)

قال تعالى : ﴿ وقاسمهما إنّى لكما لمن النّاصحين ﴾ .

إنّ اللّعين لا يتورّع عن الحلف بالله تعالى العظيم عن عمدٍ وسابق إصرارٍ كاذبًا فى سبيل هدفه الرّخيص وغايته الخسيسة . إنّه يقسم بالله العظيم لآدم وحوّاء عليهما السّلام بأنّه ـ اللّعين ـ لآدم وحوّاء عليهما السّلام من النّاصحين لهما ، الخالصى الود الصّادقى النّصح السّليمى الصّدر فى حقّهما . إنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام حينما أقسم اللّعين لهما بالله العظيم صدّقاه وهو الكَذوب .

وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له[1] وفى رواية : من خادعنا بالله خدعنا[2] وفى الحديث : المؤمن غِرٌّ كريم ، أي ليس بذى نُكْر ، فهو ينخدع لانقياده ولينه ، وهو ضدّ الخَبّ . يقال : فتًى غِرّ وفتاة غِرّ ، وقد غَرِرتَ

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٦ . (٢) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٥ .

تَغَرُّ غَرارة . يريد أنّ المؤمن المحمود مَنْ طَبْعُهُ الغَرارةُ وقلّةُ الفطنة للشّرّ وترك البحث عنه . وليس ذلك منه جهلاً ولكنّه كَرَمٌ وحسن خلق . ومنه حديث الجنّة : يدخلُنى غِرّة النّاس أي البُلْه الّذين لم يجرّبوا الأمور فهم قليلو الشّرّ منقادون . فإنّ من آثر الخمول وإصلاحَ نفسه والتّزوّد لمعاده ونَبَذ أمور الدّنيا فليس غِرًّا فيما قصد له ولا مذموماً بنوعٍ من الذّمّ »[1] .

وكي يتحقّق قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة ﴾ استطاع اللّعين بعلم الله تعالى وإذنه أن يغري آدم وحوّاء عليهما السّلام بالأكل من الشّجرة وقد قال الحقّ جلّ وعلا فى سورة طه[3] : ﴿ ولقد عَهِدْنا إلى آدم من قَبْلُ فَنَسِيَ ولم نجد له عزما ﴾ .

وإلى نزول آدم وحوّاء عليهما السّلام من عليائهما وندمهما حيث لا ينفع النّدم أشارت .

الآيــــة رقم (٢٢)

قال تعالى : ﴿ فدلاّهما بغُرور . فلمّا ذاقا الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وناداهما ربُّهُما ألم أنهكما عن تلكما الشّجرةِ وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوٌّ مبين ﴾ .

فدلاّهما مِنْ إدلاء الدّلو[4] والدّلو واحدة الدّلاء الّتى يُسْتَقَى بها ، تذكّر وتؤنّث[5] يقال : أَدْلَيْتُ الدّلو ودَلَيْتُها إذا أرسلتها فى البئر ، ودلوتُها أدلوها فأنا دالٍ إذا أخرجتها[6] وقيل : أدلاها ألقاها ليستقي بها ، ودلاها جبذها لِيُخْرِجها ، تقول : دَلَوْتها أدلوها دَلْوًا إذا أخرجتَها وجذبتها من البئر ملأى[7] وفى قصّة يوسف : فأدلى دلوه قال يا بُشْرَى . والتّدلّى : النّزول من العُلْو[8] ولا يكون التّدلّى إلاّ من عُلْوٍ إلى استفال ، تدلّى من الشّجرة . ويقال : تدلّى فلانٌ علينا مِنْ أرض كذا وكذا أي أتانا[9] ودلاّه بغرور أي أوقعه فيما أراد من تغريره وهو مِنْ إدلاء الدّلو[10] .

---

(١) لسان العرب : « غرر » .
(٢) سورة البقرة ٣٠ .
(٣) الآية ١١٥
(٤ ـ ١٠) لسان العرب : « دلى » .

وغرّه يغُرُّه غَرًّا وغرورًا وغِرّة ، الأخيرة عن اللّحيانى ، فهو مغرور وغرير ، خدعه وأطمعه بالباطل[١] والغُرور ، بالضّمّ : ما اغترّ به من متاع الدّنيا[٢] وقال الأصمعىّ : الغَرور (بالفتح) : الّذى يَغُرّك . والغُرور ، بالضّمّ : الأباطيل ، كأنّها جمع غَرّ مصدر غَررته غَرًّا[٣] والغَرور : ما غرّك من إنسان وشيطان وغيرهما ، وخصّ يعقوب به الشّيطان[٤] والغَرور : الشّيطان يَغُرُّ النّاس بالوعد الكاذب والتّمنية[٥] .

ممّا سبق يتبيّن أنّ معنى القول : ﴿ فدلاّهما بغرور ﴾ هو ما نصّت عليه الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ فأزلّهما الشّيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه ﴾ أزلّ من الزّلل وهو عثور القدم . يقال : زلّت قدمه وزلّت به النّعل . والزّلل فى الرّأي والنّظر مجاز[٦] والهمزة فى أزلّ للتّعدية . والمعنى جعلهما زلاّ بإغوائه وحملهما على أن زلاّ وحصلا فى الزّلّة . هذا أصل همزة التّعدية[٧] وعليه يكون معنى : ﴿ فدلاّهما بغرور ﴾ فدلّى الشّيطان الرّجيم آدم وحوّاء عليهما السّلام وهبط بهما من علیائهما فى الجنّة بغروره وخِداعه وأباطيله فأكلا من الشّجرة الّتى نهاهما الله تعالى عن مجرّد القرب منها .

فلمّا ذاق آدم وحوّاء عليهما السّلام من الشّجرة ، والمعروف أنّ الذّوق إنّما يكون باللّسان فى العادة ويمثّل أولى مراحل الأكل ، بدت لهما بإرادة الله تعالى سوءاتهما وعوراتهما ، قُبُلهما ودبرهما ، وكانت سوءاتهما مستورةً بإرادة الله تعالى . ولمّا كانت النّفس الإنسانيّة السّويّة من طبعها الحياء والاحتشام فقد طفق آدم وحوّاء عليهما السّلام وأخذا[٨] يخصفان عليهما من ورق شجر الجنّة ، ويجعلان عليهما خَصَفةً وهي أوراق[٩] ويُلْزِقان بعضه على بعض ليسترا به عورتهما أي يطابقان بعض الورق على بعض ، وكذلك الاختصاف[١٠] اللّيث : الاختصاف أن

(١ ـ ٥) لسان العرب « غرر » .
(٦) البحر المحيط ١/١٥٩ .
(٧) البحر المحيط ١/١٦٠ .
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طفق » ٣٠٥ .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خصف » ١٤٩ .
(١٠) لسان العرب : « خصف » .

يأخذ العريان ورقاً عِراضاً فيخْصِفَ بعضها على بعضٍ ويستتر بها . يقال : خَصَفَ واختصف يَخْصِف ويَخْتَصِف إذا فعل ذلك[١] خَصَفَ النَّعل يَخْصِفُها خَصْفًا : ظاهَرَ بعضها على بعض وخرزها ، وهي نَعْلٌ خصيف . وكلُّ ما طورق بعضه على بعضٍ فقد خُصِف . وفي الحديث : أنّه كان يَخْصِف نَعْله ، وفي آخر : وهو قاعدٌ يخصف نعله أي كان يَخْرُزها ، من الخَصْف : الضّمّ والجمع[٢] وطارقَ الرّجل بين نعلين وثوبين : لبس أحدهما على الآخر . وطارق نعلين : خَصَفَ إحداهما فوق الأخرى ، وجِلْد النّعل طِراقُها[٣] وكلُّ ما وُضِع بعضه على بعضٍ فقد طورق وأَطْرَق[٤]

لقد أدرك آدم وحوّاء عليهما السّلام بعد فوات الأوان الذّنب العظيم الّذى ارتكباه فى جنب الله تعالى بإغواءٍ من الشّيطان الرّجيم . وإنّ الله تعالى علاّم الغيوب الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، والّذى وسعت رحمته كلّ شيء ، يناديهما ويذكّرهما بنهيه جلّ وعلا لهما عن الأكل من الشّجرة وطاعة الشّيطان الرّجيم البيّن العداوة لهما . قال تعالى : ﴿ وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوٌّ مبين ﴾ وإنّ هذا الاستفهام التقريريّ الّذى يشتمّ منه رائحة الإنكار معروفٌ جوابه تمامًا لدى آدم وحوّاء عليهما السّلام : بلى نهيتنا وقلت لنا كذا وكذا . ويصحّ أن نفهم من النّداء فى القول : ﴿ وناداهما ﴾ المسافة البعيدة الّتى يحتاج صوت النّداء أن يقطعها حتّى يصل إلى آدم وحوّاء عليهما السّلام . وهذا البعد هو الثّمرة النّكدة للقرب من الشّيطان وطاعته . وإنّ الّذى لطّف النّداء واختصر البعد لفظ الرّبّ المتّصل به الضّمير العائد إلى آدم وحوّاء عليهما السّلام : ﴿ وناداهما ربّهما ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ من متعلّقات استعماله فى القرآن الكريم معانى الرّضا والخصوص والتّربية بالنّعم والآلاء ووجوب الشّكر لله تعالى عليها . ويتمشّى مع النّداء اسم الإشارة للمؤنث فى البعد : « تلك» .

---

(١) لسان العرب : « خصف » .
(٢) لسان العرب : « خصف » .
(٣) لسان العرب : « طرق » .
(٤) لسان العرب : « طرق » .

والحقيقة أنّ فى الإمكان الإفادة من القول : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ درسًا عظيمًا فى انهيار الحضارات ، وأنّ فى الإمكان كذلك الإفادة من القول : ﴿ فلمّا ذاقا الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ﴾ درسًا عظيمًا آخر فى بناء الحضارات .

وتفسير ذلك أنّا حينما نبحث عن العنصر المهمّ فى قيام الحضارات وطول بقائها فإنّا نتبيّن أنّ هذا العنصر هو العفّة والطّهر . وحينما نبحث عن العنصر المهمّ فى انهيار الحضارات وسرعة زوالها فإنّا نتبيّن أنّ هذا العنصر هو الفجور وانحطاط أخلاق الرّجال والنّساء على السّواء . أمّا وسيلة إبليس اللّعين لهدم الحضارات والمجتمعات والبيوتات ، وأمّا مفتاحه للشّرور والنّكبات والويلات فإنّه الانحراف بالمرأة عن سواء السّبيل والخروج بها عن الصّراط المستقيم . إنّ فى إمكانك أن تستعرض الحضارات المختلفة كي تتبيّن أنّها قامت على الفضيلة وأنّها انهارت بسبب الرّذيلة . ولا تغرّنّك الحضارة الحاليّة فإنّها حضارةٌ ماديّةٌ برّاقةٌ زائفة ، بقدر ما يسرّ الغِرَّ مظهرُها يسوء ذا الحُنْكة مخبرها . لعلّك بهرك مشي إنسان هذه الحضارة الماديّة على سطح القمر كما بهرنى . ولكن فى مجال الرّوح والأخلاق بمعناها السّماويّ هل تعلم أنّ درك الانحطاك الخلقيّ قد هوى ببعض أفراد تلك المجتمعات وشرائحها إلى الدّرك الأسفل الّذى ليس وراءه درك ، أعنى ما يسمّى بتبادل الزّوجات ! ومِنْ أنْتَن ما قرأت فى هذه الأيّام تسجيل فيلم سينمائيّ أعلى الإيرادات لأنّ أحداثه تدور حول تأجير زوجٍ ديّوث زوجته الغانية لليلةٍ حمراء واحدة مقابل مبلغ كبيرٍ مغرٍ من المال ! الحقيقة أنّ المرء يتحرّج من الحديث الزّائد عن حدّ الضّرورة فى هذا المجال . وأكتفى فى هذه المناسبة بالتّنبيه إلى الأساس الّذى تقوم عليه الحضارة الإسلاميّة السّماويّة وكلّ حضارةٍ سماويّة الأصل وهو تقديم الحقّ والخير وتأخير الجمال . وإلى الأساس الّذى تقوم عليه كلّ حضارة زائفة وهو قلب هذه الأسس الدّينيّة رأسًا على عقب وذلك بتقديم عنصر الجمال وتأخير الحقّ والخير.

إنّ كلّ حضارةٍ سماويّة تقدّم الحقّ والخير على الجمال . وإنّا لنجد التّنبيه على هذا التّقديم للحقّ والخير فى مثل قول الحقّ جلّ وعلا عن آدم وحوّاء عليهما السّلام

وهما الزّوجان وقد بدت لهما عوراتهما: ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة﴾.

وإنّ كلّ حضارةٍ منحرفةٍ عن سواء السّبيل كهذه الحضارة المادّيّة الّتى نعيشها هذه الأيّام ونتقلّب فى نعيم مادّتها تمامًا كما نتقلّب فى شقاء مادّتها وروحها ، تقدّم الجمال على الحقّ والخير . وإنّا لنجد التّنبيه على هذا التّقديم النّكد لعنصر الجمال على الحقّ والخير فى قول الحقّ عن اللّعين الّذى أضمر الشّرّ لكلٍّ من آدم وحوّاء عليهما السّلام وشرع فى التّنفيذ : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ .

وما معنى وقوف المرأة المسلمة شبه عاريةٍ بلباس الاستحمام على الشواطئ وما شاكلها دون خوفٍ أو حياء ! معناه أنّ الأمّة الإسلاميّة قد اصيبت بعض أجزئها بما يمكن أن يسمّى بالضّربة القاضية لسرّ نهضتها والعمود الفقريّ لحضارتها الرّوحيّة الدّينيّة السّماويّة . أمّا هذه الضّربة القاضية فهي إيثار الفجور على الزّواج ، والزّنى والخنا على الطّهر والعفاف .

وما الّذى دهى الأمّة الإسلاميّة حتّى إنّها لتبدأ محاولتها فى النّهوض من كبوتها بالغرق حتّى الأذقان وما فوق الأذقان فى حمأة الفجور والرّذيلة الّتى تخوض فيها الحضارة المادّيّة الحاليّة الّتى توشك أن تلفظ أنفاسها وقد تأكّد عوارها وأُعْلِن عن إفلاسها .

إنّ على الأمّة الإسلاميّة ، وهى خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، أن تضع نصب أعينها فى محاولة استعادة مجدها الإسلامىّ التّليد مثل قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ﴾ وقوله تعالى[1] : ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إنّ الله خبيرٌ بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها وليَضْرِبن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بنى أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التّابعين غير أولى الإربة من الرّجال أو الطّفل الّذين لم يظهروا على عورات النّساء . ولا يضربن بأرجلهنّ ليُعْلَمَ ما يُخْفين

---

(١) سورة النّور ٣٠ ـ ٣٢ .

من زينتهنّ . وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تُفْلحون . وأنكحوا الأيامى منكم والصّالحين من عبادكم وإمائكم . إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله . والله واسعٌ عليم ﴾ .

لقد عرفنا تمادي اللّعين بعد المعصية فى كبره فكان يتحوّل من عمى بصيرةٍ إلى آخر . لننظر فى المقابل إلى حال آدم وحوّاء عليهما السّلام إثر ارتكاب المعصية الّتى تقلّ فى السّوء كثيراً عن معصية اللّعين ربّه جلّ وعلا . لقد جاء فى الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين من سورة البقرة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فتلقّى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التّوّاب الرّحيم ﴾ وإنّ الآية الكريمة التّاليّة من سورة الأعراف تتضمّن تلك الكلمات فإلى .

الآيـــة رقم (٢٣)

قال تعالى : ﴿ قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ .

إنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام يعترفان بأنّهما ظلما نفسيهما لأنّ وبال الأكل من الشّجرة الّتى نُهيا عن الاقتراب منها عائدٌ إليهما . وإنّهما يسألان الله تعالى أن يغفر ذنوبهما ويستر عيوبهما ، لأنّ المغفرة تعنى ستر الذّنب وكتمانه . ويسبق السّتر المرتبط بالمغفرة ترك المؤاخذة على الذّنب . وبذلك تكون المغفرة بمعنى السّتر قد سبقها العفو بمعنى ترك المؤاخذة ، وهذا التّرك مضمر ، لأنّ المغفرة بمعنى السّتر لا تكون إلاّ بعد العفو بمعنى ترك المؤاخذة ، كما تكون الرّحمة الملفوظ وبها قد تلت المغفرة ، لأنّ الرّحمة إنّما تكون بعد المغفرة . وما أكثر المواضع فى القرآن الكريم الّتى تمّ فيها الجمع بين العفو والمغفرة والرّحمة ومن ذلك الآية الكريمة الأخيرة من سورة البقرة الّتى جاء فيها قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا ﴾[1] .

وفى الآية الكريمة التّالية يكون الأمر بالهبوط إلى الأرض فإلى .

---

(١) انظر على سبيل المثال دراستنا للآية الكريمة فى كتابنا : تأمّلات فى سورة البقرة ص ١٨١٤.

الآيـــة رقم (٢٤)

قال تعالى : ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم فى الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ﴾ .

جاء فى تفسير ابن كثير[١] : « قيل المراد بالخطاب فى : اهبطوا ، آدم وحوّاء وإبليس والحيّة . ومنهم من لم يذكر الحيّة . والله أعلم . والعمدة فى العداوة آدم وإبليس . ولهذا قال تعالى فى سورة طه : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾ ، الآية وحوّاء تبعٌ لآدم » .

إنّ هبوط آدم وحوّاء عليهما السّلام من الجنّة إلى الأرض حيث تستمرّ العداوة بين اللّعين من ناحية وبين آدم عليه السّلام وذرّيّته من ناحيةٍ أخرى . وقد جعل الله تعالى لآدم عليه السّلام وذرّيّته فى الأرض استقرارًا أو موضع استقرار[٣٢] ومتاعًا إلى حين انقضاء الأجل والعودة إلى الله تعالى .

والآية الكريمة الأخيرة فى القسم أكّدت علاقة الإنسان بالأرض فإلى .

الآيـــة رقم (٢٥)

قال تعالى : ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ .

شاء الله تعالى للإنسان أن يحيا فى هذه الأرض ، وأن يموت فيها ، وأن يخرج منها يوم يُنْفخ فى الصّور إيذانًا بقيام السّاعة . إنّ على المنكر للبعث أن يتّخذ من حياته فى هذه الأرض وموته فيها ، وقد بيّن القرآن الكريم ، كلام الله تعالى ، كلّ ذلك ، وأن يتّخذ من غير استطاعته غير ذلك ، دليلاً على البعث والنّشور والحساب والجزاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٦/٢ .

(٢) الكشّاف ٥٤٤/١ .

[٣]

« توجيهـــاتٌ قرآنيّـــةٌ لبنـى آدم »

الآيـــــات (٢٦ ـ ٣٦)

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا
يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ
إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ
فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ
أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ
وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقٗا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠
۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ
سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

تحدّثت آيات القسم السّابق عن إخراج اللّعين لآدم وحوّاء عليهما السّلام من الجنّة وعن تكفّله بإغراء ذرّيّتهما وإغوائهما وإخراجهما من صراط الله تعالى المستقيم إلاّ عباد الله تعالى المخلصين . وإنّ آيات القسم الّذى نحن بصدده تبيّن لبنى آدم صراط الله تعالى المستقيم كى يسلكوه ويكونوا بإذن الله تعالى من عباده جلّ وعلا ولهذا يأتى فى آيات القسم هذا النّداء : ﴿ يا بنى آدم ﴾ علماً بأنّ هذا النّداء جاء وراء ذلك مرّةً واحدة وذلك فى الآية الكريمة السّتّين من سورة يس . والملاحظ أنّ فى هذا القسم من آيات الحكمة ما ليس قابلاً للنّسخ فى سائر الشّرائع ، ومن هنا نستطيع أن نقول : إنّ آيات هذا القسم تبيّن الأسس الّتى تقوم عليها الحضارة الرّفيعة العماد الرّاسخة الأوتاد ، والعوامل الّتى تؤدّى إلى انهيار الحضارات. إنّ عماد أسس قيام الحضارات الطّهر والعفّة . وإنّ سبب انهيار الحضارات الفجور وانحطاط أخلاق النّساء والرّجال على السّواء . إنّ أولى آيات القسم تنادى بنى آدم وتخبرهم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل عليهم لباسًا يوارى سوءاتهم ورياشًا يتجمّلون به ويتزيّنون . وهكذا يبدو المسلم فى لباسه جامعاً بين الحقّ والخير وبين الجمال . ومن البيّن تقدّم الحقّ والخير على الجمال . ويتوّج جلال اللّباس وجمال الرّياش بثياب الكمال وهى لباس التّقوى الّذى هو خيرٌ من كلّ لباس، هذا إلى أنّ لباس الجلال والجمال من آيات الله تعالى . إنّ على المسلمين أن يحرصوا على ارتداء هذه الأنواع الثّلاثة من الثّياب فإنّها رمزٌ للأجنحة الّتى تحلّق بها الحضارة السّويّة ويلحق بها أخذ ثياب الزّينة عند كلّ مسجد . إنّ الحرص على إقام المسلمين الصّلاة جماعةً عند كلّ مسجد تجسيدٌ لثياب التّقوى ، وإنّ أخذ ثياب الزّينة عند كلّ مسجدٍ رمزٌ لثياب الجلال والجمال. وهكذا يرتدى المسلم دائماً وأبداً ثياب الجلال والجمال والكمال . والآية الكريمة التّالية الّتى تبدأ هى الأخرى بنداء بنى آدم تبيّن أهمّ سببٍ فى انهيار الحضارات ألا وهو العُهْر والفجور . وها هى ذى الآية الكريمة تحذّر بنى آدم أن يفتنهم الشّيطان الرّجيم ويغويهم ويضلّهم ويخرجهم من الصّراط المستقيم ويصرفهم عن الجنّة إلى النّار كما أخرج أبويهم آدم وحوّاء عليهما السّلام من الجنّة ينزع

عنهما فى عنفٍ وَقِحَة لباسهما الّذى يوارى سوءاتهما ليريهما عوراتهما . إنّ الشّيطان الرّجيم حريصٌ على أن ينزع كلٌّ من الذّكر والأنثى فى الحرام لباسه للآخر وليس من أجل اللّعين وقبيله فإنّ اللّعين وقبيله يرون بنى آدم فى كلّ الأحوال من حيث لا يرى بنو آدم الشيطان وقبيله . ومن هنا كان الّذين لا يؤمنون هم الّذين يغويهم الشّيطان الرّجيم ومن هنا كان الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون . أمّا المؤمنون فإنّ الله تعالى هو مولاهم . إنّ على المسلمين أن يحرصوا على سدّ منافذ اللّعين بأن يبادروا فى المقام الأوّل إلى تسهيل زواج الشّباب والشّابّات . وبشأن فريقٍ من أولياء الشّياطين وهم المشركون الّذين يطوفون بالبيت الحرام عراةً كانوا إذا فعلوا فاحشةً وهى ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال هم يقولون إنّهم وجدوا آباءهم عليها ويزعمون أنّ الله تعالى أمرهم بها ويبادر السّياق إلى تكذيبهم ووضع البديل الصّحيح فالله تعالى أمر بالعدل وبإقام الصّلاة جماعةً عند كلّ مسجدٍ وهى رمزٌ للعبادات ، وبإخلاص العبادة لله تعالى ، وبذلك يتحقّق الشّرطان لقبول الله تعالى الأعمال الصّالحة فضلاً منه جلّ وعلا ونعمة وهما صواب العمل وصلاح النّيّة.

وكما بدأ الله تعالى أوّل خلقٍ يعيده بالبعث . ومنهم المؤمنون الّذين زادهم الله تعالى هدى ، ومنهم الكافرون الّذين زادهم الله تعالى عمًى وحقّت عليهم الضّلالة لأنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء ، وذلك فى مقابل اتّخاذ المؤمنين الله تعالى وليّهم وناصرهم. والعجيب فى أمر الكافرين أنّهم يحسبون أنّهم مهتدون . وللمرّة الثّالثة يجىء فى السّياق هذا النّداء : ﴿ يا بنى آدم ﴾ ويؤمر بنو آدم بأن يأخذوا زينتهم عند كلّ مسجد وبأن يأكلوا ويشربوا . وإذا كان النّهى صريحًا عن الإسراف فى الأكل والشّرب فإنّه ضمنىٌّ بشأن أخذ الزّينة فإنّ الإسلام دين الوسطيّة فى كلّ الأمور . ومقياس أخذ الزّينة أن يظلّ الّذكر ذكراً والأنثى أنثى مع ارتداء ثياب الجلال والجمال والكمال . وتأكيدًا لوسطيّة هذا الدّين ينكر السّياق على أولئك الّذين حرّموا زينة الله تعالى الّتى أخرجها لعباده والطّيّبات من الرّزق ، ويقرّر أنّ هذه الزّينة هى للّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا على جهة الاستحقاق وإن اشترك غيرهم معهم فيها ، وهى يوم القيامة خالصةٌ للّذين آمنوا فى جنّات النّعيم . إنّ على بنى آدم أن يستفيدوا من تفصيل الله تعالى الآيات لقومٍ يعلمون . واستمرارًا لتأكيد

وسطيّة دين الإسلام تقرّر هذه الآية الكريمات الكلّيّات الخمس الّتى حرّمها الله تعالى لأنّها أذًى وقَذًى لكلّ نفسٍ سويّةٍ أبيّة : ﴿ قل إنّما حرّم ربّىَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ وقد جعل الله تعالى لكلّ أمّةٍ أجلاً لا تستأخر عنه وقت العذاب لتوبةٍ أو معذرة ولا تستقدم عنه وبذلك تقوم عليهم حجّة الله تعالى البالغة . وللمرّة الرّابعة والأخيرة يجىء النّداء: ﴿يا بنى آدم﴾ ويذكّر السّياق بنى آدم بنعمة الله تعالى عليهم بإرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى أنزل عليه القرآن الكريم أشرف الكتب السّماويّة ليتلوه عليهم . إنّ الّذين اتّقوا وأصلحوا لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون ولا يحزنون على ما مضى . وإنّ الّذين كذّبوا واستكبروا هم أصحاب النّار يخلدون فيها ، وذلك فى مقابل خلود المؤمنين فى جنّات النّعيم .

الآيـــة رقم (٢٦)

قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشًا . ولباس التّقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون ﴾ .

تنادى الآية الكريمة بنى آدم بالقول : ﴿ يا بنى آدم ﴾ أسوةً بثلاث آياتٍ أُخَر فى القسم هى الآيات ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ . ومن البيّن أنّ القسم السّابق يتحدّث عن آدم عليه السّلام وزوجه حوّاء عليها السّلام . فكأنّ هذا القسم يتحدّث عن الدّروس الّتى ينبغى أن يستفيدها بنو آدم وحوّاء عليهما السّلام من عداوة إبليس اللّعين لهم أجمعين ، وأهمّ هَذه الدّروس طاعة الرّحمن ومعصية الشّيطان .

والآية الكريمة تتحدّث عن ثلاثة أنواعٍ من اللّباس أو الثّياب . أمّا النّوعان الأوّلان فحسّيّان : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشا ﴾ وأمّا النّوع الثّالث فمعنوىّ : ﴿ ولباس التّقوى ذلك خير ﴾ .

ونستطيع أن نفهم من هذا النّداء : ﴿ يا بنى آدم ﴾ الّذى يجىء على غرار نداء آدم عليه السّلام فى القسم السّابق فى الآية الكريمة التّاسعة عشرة : ﴿ ويا آدم ﴾

نستطيع أن نفهم تكريم الله تعالى جنس الإنسان الّذى خصّه الله تعالى بجملةٍ من المواهب منذ أن خلق أباه آدم عليه السّلام . إنّ جنس الإنسان لم يسلبه الله تعالى شيئاً من المواهب الّتى أنعم الله تعالى بها على أبيه آدم عليه السّلام . وإنّ التّكريم الّذى فهمناه من النّداء : ﴿ يا بنى آدم ﴾ يذكّرنا بالنّصّ على تكريم الله تعالى بنى آدم فى قوله عزّ من قائل فى سورة الإسراء[1] قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا ﴾ .

وبشأن النّوعين الأوّلين الحسّيّين من اللّباس أو الثّياب يجىء القول : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوءاتكم وريشًا ﴾ وإنّ القول : ﴿ يوارى سوءاتكم ﴾ يذكّرنا بالقول فى القسم السّابق فى الآية الكريمة العشرين : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ إنّ الشّيطان الرّجيم قد حرص على أن يبدى لآدم وحوّاء عليهما السّلام ما وُورِىَ عنهما من سوءاتهما وسُتِرَ عنهما من فروجها ، وإنّ اللّعين يريد الشّىء ذاته بشأن ذرّيّة آدم عليه السّلام على نحو ما بيّنت الآية الكريمة التّالية بصريح اللّفظ . وانظر فى المقابل إلى تكريم الله تعالى هذا الإنسان . إنّ الله سبحانه وتعالى يكرمه بنوعين اثنين من اللّباس المحسوس. ويردفهما بنوعٍ ثالثٍ معنوىّ . واللّطيف فى الأمر أنّ اللّباس المعنوىّ الواحد خيرٌ من اللّباسين الاثنين الحسّيّين . فهل يليق بالإنسان الخليق باسم « الإنسان » أن يرفض تكريم الله تعالى له ، وأن يقبل إهانة الشّيطان الرّجيم له ؟ لا يليق شىءٌ من ذلك بالإنسان .

فكيف عبّرت الآية الكريمة فى أسلوبها المعجز عن هذين النّوعين الحسّيّين من اللّباس فى القول : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشا ﴾ ؟ نودّ ابتداءً أن نقف عند القول ﴿ وريشا ﴾ الذى يعبّر عن النّوع الآخر من اللّباس الحسّىّ . فما معنى القول : ﴿ وريشا ﴾ ؟ جاء فى المفردات[2] : « ريش الطّائر معروف .

---

(١) الآية ٧٠ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « ريش » ٢٠٧ .

وقد يُخَصُّ الجَناحُ من بين سائره . ويكون الرّيش للطّائر كالثّياب للإنسان استعير للثّياب . قال تعالى : ﴿ وريشًا ولباس التّقوى ﴾ وحينما يكون الرّيش لباسًا للطّائر، وحينما يكون جمال ريش الطّائر أهمّ ملامحه مثل الطّاووس يكون القول : ﴿ وريشا ﴾ استعارةً للنّوع الآخر من اللّباس الّذى يتزيّن به الإنسان. وقد أطلق الإنسان على هذا النّوع من لباس الزّينة لفظة ريش ولفظة رياش. يقول البخارىّ فى صحيحه[١] « الرّياش والرّيش واحدٌ وهو ما ظهر من اللّباس » ويقول الزّمخشرىّ[٢]: « والرّيش لباس الزّينة استعير من ريش الطّير لأنّه لباسه وزينته . أى أنزلنا عليكم لباسين لباسًا يوارى سوءاتكم ولباساً يزينكم لأنّ الزّينة غرضٌ صحيح كما قال : ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ . ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ » ويقول ابن عطيّة[٣] : « ويشبه أنّ هذا كلّه من معنى ريش الطّائر وريش السّهم ، إذ هو لباسه وسُتْرته وعونه على النّفوذ » « وقال الفرّاء : ريش ورياش ، كما يقال : لِبْس ولباس . وريش الطّائر ما ستره الله به »[٤] وفى الجلالين : « هو ما يتجمّل به من الثّياب » ويقول ابن كثير[٥] : « يمتنّ تعالى على عباده بما جعل لهم من اللّباس والرّيش . فاللّباس ستر العورات وهى السّوءات . والرّياش والرّيش ما يتجمّل به ظاهراً . فالأوّل من الضّروريّات . والرّيش من التّكملات » .

وإنّ القول : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشا ﴾ يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا فى إنزال الثّمانية الأزواج من الأنعام فى سورة الزُّمَر[٦] : ﴿ خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثمّ جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج. يخلقكم فى بطون أمّهاتكم خلقًا من بعد خلق فى ظلماتٍ ثلاث . ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنّى تُصْرَفون ﴾ . إنّ بعض اللّباس الّذى يستتر به ويتزيّن به مصنوعٌ من صوف الضّأن ووبر الجمل وربّما من شعر المعز وقد قال عزّ من قائل[٧] : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سَكَنًا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا

---

(١) صحيح البخارىّ ٦/٧٣ .
(٢) الكشّاف ١/٥٤٤ .
(٣) تفسير ابن عطيّة ٥ / ٤٧٢ .
(٤) تفسير القرطبىّ ٢٦٢٠ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٣٧٥ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٧ .
(٦) الآية ٦ .
(٧) الآية ٨٠ .

تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ وإنّ بعض اللّباس الّذى يستتر به ويتزيّن به مصنوعٌ من متعلّقات بعض النّبات كالقطن والكتّان . والقطن . جنس نباتاتٍ زراعيّة ليفيّة . وثمرته ، وهى مادّة بيضاء وَبَريّة ناعمة تُغْزَل خيوطًا تُصْنَع منها الثّياب[1] والكَتّان نباتٌ زراعىٌّ من الفصيلة الكتّانيّة حَوْلىّ يزرع فى المناطق المعتدلة والدّفئة ، يزيد ارتفاعه على نصف متر ، زهرته زرقاء جميلة ، وثمرته علبقة مدوّرة تعرف باسم بذر الكتّان، يعتصر منها الزّيت الحارّ ، ويتّخذ من أليافه النّسيج المعروف[2] .

وبهذا يتبيّن أنّ من اللباس والرّيش ما مصدره الضّرع والزّرع ، الحيوان والنّبات. والمعروف أنّ كلاً من الحيوان والنّبات يُسْقَى بماءٍ واحد . وبناءً على ذلك نكون بشأن القول : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشًا ﴾ أمام تعبيرٍ مجازىّ. يقول القرطبىّ[3] : « قوله تعالى : ﴿ أنزلنا عليكم لباساً ﴾ ، يعنى المطر الّذى ينبت القطن والكتّان ، ويقيم البهائم الّتى[4] منها الأصواف والأوبار والأشعار فهو مجاز مثل : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ » ويصحّ أن يكون المعنى: قد أنزلنا من السّماء ماءً فأحيينا به أرضًا ميتًا فأنبتت الزّرع الّذى تتّخذون من بعض متعلّقاته لباسًا ورياشًا ، وسقت الضّرع الّذى يأكل ممّا تنبت الأرض من الزّرع وتتّخذون من صوفه ووبره وشعره لباسًا ورياشًا وأثاثًا ومتاعا .

والسّوءة العورة . يقول الطّبرىّ[5] : « يوارى سوءاتكم يقول : يستر عوراتكم عن أعينكم . وكنى بالسّوءات عن العورات واحدتها سوءة ، وهى فَعْلة من السّوء. وإنّما سمّيت سوءة لأنّه يسوء صاحبَها انكشافُها من جسده » ويفهم من القول : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم ﴾ أنّنا بصدد النّوع من اللّباس الّذى يوارى السّوءة ويستر الفرج . ولا شكّ أنّ هذا النّوع من اللّباس ضرورىّ .

وحينما يكون القول : ﴿ وريشا ﴾ مستعارًا من ريش الطّائر الّذى جمع إلى السّتر والتّغطية الجمال والزّينة يكون هذا القول : ﴿ وريشا ﴾ دليلاً على النّوع الآخر من

---

(١) المعجم الوسيط : « قطن » .
(٢) المعجم الوسيط « كتن » .
(٣) ص ٢٦٢٠ .
(٤) فى الأصل : « الّذى » .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٨ / ١٠٨ .

الثّياب الّذى يتجاوز الضّرورىّ إلى الكمالىّ بأن يجمع إلى النّفع والسّتر الزّينة والجمال والفخامة والجلال .

وانظر إلى الجارّ والمجرور : ﴿ عليكم ﴾ الّذى يهيّئ لعمليّة اللّباس على الجسد ، والّذى لا يُسْتَغْنَى عنه مع إمكان ذلك ، والّذى يتقدّم حيث لا مجال لتقديم مع أنّه فضلة فقد جاء بعد جملة : ﴿ أنزلنا ﴾ مباشرةً دليلاً على أنّ بنى آدم هم الهدف من تسخير الله تعالى لهم كلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض . وقد جاء فى سورة الجاثية[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ الله الّذى سخّر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون . وسخّر لكم ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعًا منه . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

وفى تقديم اللّباس على الرّيش تقديمٌ للحقّ على الجمال . إنّ الهدف الأوّل من الثّياب ستر العورة ويأتى بعد ذلك ثياب الزّينة والجمال . ويتعلّق بذلك السِّربال بمعنى القميص من أى جنسٍ كان[2] والجمع سرابيل[3] قال تعالى[4] : ﴿ والله جعل لكم ممّا خلق ظِلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحَرَّ وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلّكم تُسْلِمون ﴾ وقال تعالى[5]: ﴿ وترى المجرمين يومئذٍ مقرّنين فى الأصفاد . سرابيلهم مِنْ قَطِرانٍ وتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النّار ﴾ .

وكما قدّمت الآية الكريمة الحقّ والجلال : ﴿ لباسًا يوارى سوءاتكم ﴾ على الزّينة والجمال : ﴿ وريشا ﴾ قدّمت الخير . قال تعالى : ﴿ ولباس التّقوى ذلك خير﴾ إنّ الحديث عن اللّباس الحسّىّ رشّح للحديث عن اللّباس المعنوىّ . إنّ لباس التّقوى ، بمعنى العمل الصّالح كما قال ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما[6] وبمعنى الورع والخشية من الله تعالى[7] .

والحقيقة أنّ التّحوّل من اللّباس الحسّىّ إلى اللّباس المعنوىّ هنا يذكّرنا بالتّحوّل

---

(١) الآية ١٢ و١٣

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « سربل » ٢٢٩ .

(٣) لسان العرب : « سربل » .

(٤) سورة النّحل ٨١ .

(٥) سورة إبراهيم ٤٩ ، ٥٠ .

(٦) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٨ / ١١٠ .

(٧) الكشّاف ١ / ٥٤٤ .

ذاته فى الآية الكريمة السابعة والتّسعين بعد المائة من سورة البقرة الّتى يتمّ فيها التّحوّل من الأمر بالتّزوّد فى الحجّ من الطّعام إلى الأمر بالتّزوّد من التّقوى . ومن البيّن أنّ فى الموضعين الاثنين تحوّلاً إلى التّقوى . قال تعالى[١] : ﴿ الحجّ أشهرٌ معلوماتٌ . فمن فَرَض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ . وما تفعلوا مِنْ خَيْرٍ يعلمه الله . وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى . واتّقون يا أولى الألباب﴾ .

والحقيقة كذلك أنّ اللّباس ذاته تحوّل من الحقيقة إلى المجاز . إنّ اللاّم والباء والسّين أصلٌ صحيحٌ واحد ، يدلّ على مخالَطَةٍ ومداخَلة . من ذلك لَبِسْتَ الثّوب أَلْبَسه ، وهو الأصل ، ومنه تتفرّع الفروع[٢] يقال : لَبِس الثّوب إذا استتر به وألبسه غيره[٣] .

واستعير اللّباس للجوع والخوف . قال تعالى[٤] : ﴿ وضرب الله مَثَلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنّةً يأتيها رزقها رَغَدًا من كلّ مكانٍ فكفرت بأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ .

واستعير اللّباس كذلك لكلّ ما يغطّى من الإنسان عن قبيح ، فَجُعِل الزّوج[٥] لزوجه لباساً من حيث إنّه يمنعها ويصدّها عن تعاطى قبيح . قال تعالى[٦] : ﴿ هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ ﴾ . فسمّاهنّ لباسًا كما سمّاها الشّاعر[٧] نُفَيْلة الأكبر الأشجعىّ ، وكنيته أبو المِنْهال ، إزارًا . وكان الشّاعر كتب إلى عمر بن الخطّاب أبياتاً من الشّعر يشير فيها إلى رجلٍ كان واليًا على مدينتهم يُخْرِج الجوارىَ إلى سَلْع[٨] عند خروج أزواجهنّ إلى الغزو ، فيَعْقِلهنّ ويقول : لا يمشى فى العِقال إلاّ الحَصان[٩] فربّما وقعت فتكشّفت . وكان اسم هذا الرّجل جعدة بن عبد الله

---

(١) سورة البقرة ١٩٧ (٢) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « لبس » ٥ / ٢٣٠ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « لبس » ٤٤٧ .
(٤) سورة النّحل ١١٢ . (٥) يطلق الزّوج على الذّكر والأنثى .
(٦) سورة البقرة ١٨٧ . (٧) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « لبس » ٤٤٧ .
(٨) سَلْع ، بفتح أوّله وسكون ثانيه ، والجمع سُلوع الشّق فى الجبل والطّريق فيه . وسَلْع جبلٌ بسوق المدينة وموضع بقرب المدينة . معجم البلدان : « سلع » .
(٩) الحصان بفتح الحاء : المرأة العفيفة .

السّلمىَ فقال :

ألا أبلـــغ أبا حَفْـــصٍ رســولا فِـــدًى لك من أخى ثقةٍ إزارى[١]

قال أبو عمرو الجَرْميّ : يريد بالإزار ههنا المرأة . وفى حديث بيعة العقبة : لنمنعنّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا أى نساءنا وأهلنا ، كنى عنهنّ بالأُزر[٢] .

واستعير فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها اللّباس للتّقوى بجامع دفع الأذى فى كلٍّ من اللّباس والتّقوى . إنّ اللّباس يدفع الأذى فى المحسوسات . وإنّ التّقوى تدفع الأذى فى المعنويّات . إنّ التّقوى فى المعنويات بمثابة الوقاية فى المحسوسات . إنّ من أراد أن يقى جزءًا من جسده أذى الشّىء الحارّ مثلاً أو الخشن اتّخذ وقايةً محسوسةً من قماشٍ أو غيره . وإنّ من أراد أن يقى جسده النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة[٣] يوم القيامة اتّخذ التّقوى وقايةً معنويّةً له . إنّ التّقوى تلك القوّة الدّاخليّة والشّعور العميق المؤلّف من الخوف من الله تعالى والرّجاء والخشية والحبّ. وبذلك تكون التّقوى بهذا المعنى حجازًا معنويًّا يحول بين المرء وبين إتيان ما يسوؤه ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون . إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾[٤] ولباساً معنويًّا يبعد الإنسان عن كلّ قبيح ، ويقرّبه من كلّ مليح . ولا شكّ أنّ هذا النّوع من اللّباس المعنوىّ هو الأهمّ وهو الأصعب منالاً والأحسن حالاً والأفضل مآلاً : ﴿ ولباس التّقوى ذلك خير ﴾ ومن البيّن أنّ لباس التّقوى المعنوىّ يرتديه بفضل الله تعالى أولياؤه جَلّ وعلا عباد الرّحمن فى حين يرتدى اللّباس فى المحسوسات كلّ عباد الله تعالى تقريباً .

وليس بخافٍ أنّ آية سورة الأعراف الكريمة تريد من اللّباس فى المحسوسات لباس العفّة والاحتشام قبل لباس الزّينة والجمال . وبذلك نكون فى الآية الكريمة بصدد اللّباس الّذى يستر العورة ويستر الجسد ويحقّق الطّهر والعفاف والاحتشام . ومن الطبيعىّ أن يؤدّى هذا النّوع من اللّباس إلى لباس التّقوى الّذى هو خير .

وما معنى القول : ﴿ ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون ﴾ وهل يعود اسم

---

(١) انظر تمام الأبيات فى لسان العرب : « أزر » . (٢) لسان العرب : « أزر » .

(٣) المراد بالحجارة الأصنام . (٤) سورة الشّعراء ٨٨ و٨٩ .

الإشارة الدّالّ على البعد : ﴿ ذلك ﴾ على النّوعين من اللّباس الحسّيّ : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشا ﴾ ؟ أو على النّوع الواحد من اللّباس المعنويّ: ﴿ ولباس التّقوى ذلك خير ﴾ ؟ أو على الأنواع الثلاثة من اللّباس ، الشّعار ، والدّثار والتّقوى ؟

قبل ترجيح أحد هذه الآراء الثّلاثة نودّ أن نتبيّن المعنى لكلٍّ منها .

إنّ الرّأى الّذى يذهب إلى أنّ هذا التّذييل : ﴿ ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون﴾ يرتبط بالقول : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشا ﴾ يعتمد على كون اللّباس الّذى جعله الله تعالى لنا ستراً وزينة هو من آيات اللّه تعالى الدّالّة على قدرته جلّ وعلا . إنّ الحصول على هذين النّوعين من اللّباس من الزّرع ومن الضّرع من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا . وربّما أيّد أصحاب هذا الرّأى رأيهم بالقول : إنّ اسم الإشارة : ﴿ ذلك ﴾ فى التّذييل العائد إلى اللّباس الحسّيّ بمعنييه هو فى مقابل اسم الإشارة ذاته العائد بالإجماع إلى اللّباس المعنويّ فى القول : ﴿ ولباس التّقوى ذلك خير ﴾ .

ونحن نرى هذا الرّأى .

وإنّ الرّأى الّذى يذهب إلى أنّ التّذييل يرتبط باللّباس المعنوى يذهب إلى ما « حكى النّقّاش أنّ الإشارة إلى : لباس التقوى ، أي هو فى العبد آيةٌ أى علامةٌ وأمارةٌ من الله أنّه قد رضى عنه ورحمه »[1] .

ومن البيّن أنّ هذه الآية معنويّةٌ على غرار اللّباس المعنويّ . ومن البيّن كذلك أنّ الوصول إلى الآية فى المحسوسات أقرب منه فى المعنويّات .

ونحن لا نرى هذا الرّأى .

وإنّ الرّأى الّذى يجمع بين الأنواع الثّلاثة من اللّباس يجمع فى قَرَنٍ بين المحسوس والمعنويّ . وإنّ ما قيل عن اللّباس المعنويّ بشأن الرّأى الثّانى يقال هنا .

ونستطيع أن نضيف إلى الرّأى الأوّل الّذى ارتأيناه وارتضيناه أنّ التّذييل ذاته يفضى إلى التّقوى ، اللّباس المعنويّ . وتفسير ذلك أنّ التّذييل : ﴿ ذلك من آيات

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٥ / ٤٧٢ .

الله لعلّهم يذّكّرون ﴾ . ينبّه إلى أنّ الآيات المحسوسة المتمثّلة فى الحصول على النّوعين المحسوسين من اللّباس عن طريق كلٍّ من الزّرع والضّرع المحسوسين من آيات الله تعالى الّتى تنتهى بأصحاب العقول الرّاجحة والقلوب السّليمة إلى التّذكّر والاتّعاظ والتّقوى . والمعروف أنّ التّقوى إذا كانت تبدأ باتّقاء النّار بفعل الحسنات واجتناب السّيّئات فإنّها لا حدّ لنهايتها لأنّها فى سموّها ربّما كانت الوجه الآخر من الإحسان كما بيّنه الحديث النّبوىّ الشّريف بـ : أنْ تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[1] .

وبعد الإرشاد إلى اللّباس بنوعيه والتّحلية ، تأتى التّخلية متمثّلةً فى التّحذير من فتنة الشّيطان الرّجيم الّذى فتن أبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام.فإلى .

الآيـــة رقم (٢٧)

قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون ﴾ .

على غرار الآية الكريمة السّابقة تبدأ الآية الكريمة بالقول : ﴿ يا بنى آدم ﴾ وكما عرف آدم وحوّاء عليهما السّلام عداوة الشّيطان الرّجيم لهما عرف بنو آدم . وإذا كان اللّعين قد غرّر بآدم عليه السّلام وخدعه وبذلك لُدِغ أبونا آدم وأمّنا حوّاء عليهما السّلام أوّل مرّة فهل يليق بالمؤمن أن يلدغ مرّةً أخرى من ذات الجحر الّذى لُدغ منه والداه أوّل مرّة ؟ إنّ الآية الكريمة تنهى بنى آدم عموماً وليس المؤمنين خصوصاً ، بقصد أن يتحوّل بنو آدم جميعاً مؤمنين مسلمين لله ربّ العالمين مخبتين ، تنهى بنى آدم عن فتنة الشّيطان وخداعه وتضليله لهم .

وكأنّ الكلام على الحذف وكأنّ المعنى : يا بنى آدم لا يفتننّكم الشّيطان الرّجيم ولا يضلّنّكم[2] ولا يخدعنّكم[3] كما أضلّ وخدع أبويكم بأن زيّن لهما المعصية

---

(١) صحيح البخارىّ ١ / ٢٠ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٨ / ١١٢ .

بالأكل من الشّجرة ، وحلف لهما بالله العظيم كذبًا وادّعاءً بأنّه لهما لمن النّاصحين المخلصين ، فأطاعاه فأكلا من الشّجرة الّتى نهاهما الله تعالى عن مجرّد الاقتراب منها . وبذلك نزع اللّعين عنهما لباسهما الخاصّ بهما والّذى سترهما الله تعالى وزيّنهما به ، وبذلك رأى كلٌّ منهما عورة الآخر وسوءته وأخرجهما من الجنّة .

ونحن نودّ أن نتبيّن معالم النّعيم الّتى كان يرفل فيها آدم وحوّاء عليهما السّلام فى الجنّة حتّى أخرجهما اللّعين منها من أجل أن نتبيّن ما يقابل هذه المعالم فى حقّ بنى آدم عليه السّلام الّذين وُلِدوا فى هذه الأرض . إنّ آدم عليه السّلام قد أكرمه الله تعالى هو وزوجه حوّاء عليهما السّلام بالسّكن فى الجنّة ، وبالحياة الطّيّبة فيها ، وبلباس الكمال والجمال الّذى سترهما الله تعالى وزيّنهما به قبل أن يعصيا الله تعالى ويطيعا الشّيطان الرّجيم فما الّذى يقابل فى هذه الحياة الدّنيا تلك المعالم من نعيم الجنّة ؟ ومن البيّن أنّ الحديث عن بنى آدم من زاوية المؤمنين الّذين حقّقوا الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله وهو إفراده جلّ وعلا بالعبادة . إنّ فى الجنّة زوجين يسكن أحدهما للآخر ، وإنّ فى هذه الحياة الدّنيا زوجين ـ على سبيل الافتراض ـ بسبب حثّ هذا الدّين الحنيف على العفاف ، وإنّ فى الجنّة لباسًا خصّ الله تعالى به ذينك الزوجين ، وإنّ فى هذه الحياة الدّنيا لباساً وريشاً قد أنزله الله تعالى من أجل أن يستتر ويتزيّن به الإنسان ، وإنّ فى هذه الحياة الدّنيا لباساً معنويًّا آخر خيراً من اللّباسين السّابقين الحسّيّين ألا وهو لباس التقوى . فما الّذى يقابل النّعيم المقيم فى الجنّة ذلك النّعيم المقيم الّذى عبّرنا عنه بالحياة الطّيّبة ؟ إنّ الّذى يقابل ذلك فى حقّ المؤمنين فى هذه الحياة الدّنيا هو الحياة الطّيّبة الّتى يحييها الله تعالى المؤمن والمؤمنة اللّذين يعملان الصّالحات . قال تعالى[1] : ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

إنّ كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ يستطيع ـ بإذن الله تعالى وبفضله وبكرمه ـ أن يحيا الحياة الطّيّبة وذلك بتطبيق تعاليم هذا الدّين الحنيف . إنّ هذه الحياة الطّيّبة فى الأولى فى مقابل النّعيم المقيم الّذى كان يتقلّب فيه أبوانا عليهما السّلام فى الجنّة . وإنّ الدّليل

---

(١) سورة النّحل ٩٧ .

على أنّ الحياة الطّيّبة فى الأولى هى النّعيم المقيم فى الجنّة موجودٌ فى الآية الكريمة من سورة النّحل الّتى تنصّ على أنّ الحياة الطّيّبة فى الأولى الّتى هى دار العمل ولا جزاء موصولة بالجزاء الأحسن من ربّ العباد فى الآخرة الّتى هى دار الجزاء ولا عمل .

إنّ الّذى يدخل الجنّة إذا كان هو الفائز والسّعيد حقًّا فى الآخرة فإنّ المؤمن الّذى يعمل الصّالحات ابتغاء وجه ربّه الأعلى هو الفائز والسّعيد حقًّا فى الأولى الّتى يكرمه الله تعالى بالحياة الطّيّبة فيها . وهكذا يتبيّن أنّ السّعيد والفائز حقًّا هو التّقىّ، لأنّ الحياة الطّيّبة فى حقّه موصولةٌ ومستمرّةٌ فى الحياتين . قال تعالى[1] : ﴿ الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون ﴾ .

وكما اجتهد اللّعين فى الإفساد على أبوينا عليهما السّلام النّعيم المقيم الّذى كانا يتقلّبان فيه بإخراجهما من الجنّة بإذن الله تعالى يجتهد اللّعين فى الإفساد على بنى آدم فى هذه الحياة الأولى بمحاولة منعهم من الحياة الطّيّبة فى الأولى وبمحاولة إخراج المؤمنين الطّيّبين منها . ألم يتوعّد اللّعين فى هذه السّورة الكريمة بالقعود لبنى آدم صراط الله تعالى المستقيم فى حقّ الّذين يأتون إليه ، وبالإتيان من جميع الجهات الممكنة فى حقّ الّذين لا يأتون إليه كيلا يكون أكثر من بنى آدم من الشّاكرين لله تعالى نعمه وآلاءه العظيمة بل من الكافرين بالله تعالى الكفورين للنّعم ؟ بلى . قال تعالى[2] : ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

وما هى وسيلة اللّعين لمنع بنى آدم من الحياة الطّيّبة فى الأولى أو لإخراجهم منها إن كانوا فيها ؟ إنّها وسيلة اللّعين لإخراج أبوى بنى آدم من الجنّة . وقد نصّت الآية الكريمة على تلك الوسيلة : ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ إنّ الوسيلة هى نزع اللّباس . ومن البيّن أنّ اللّباس يعنى الثّياب الّتى تلامس الجسد ، وفى نزع اللّباس نزعٌ من باب الأحرى والأولى للرّيش أو الرّياش بمعنى ثياب الكمال أو الدّثار، ومن البيّن كذلك أنّه لا مكان مع نزع اللّباس أى الحياء للنّوع الثّالث من اللّباس وهو لباس التّقوى المعنوىّ . ومن ألطف ما يفيده استعمال لفظ اللّباس هنا أنّه ينبّه إلى أنّ من معانى لفظ اللّباس اللّباس الّذى يستر العورة مباشرة .

---

(١) سورة النّحل ٣٢ (٢) سورة الأعراف ١٦ ، ١٧ .

وانظر إلى جملة ﴿ ينزع ﴾ الّتى تفيد التّصميم والعنف والسّرعة . وإنّ هذه الملابسات تتعلّق بنزع أىّ أنواع اللّباس ؟ الّذى يستر العورة بنصّ الآية الكريمة . ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ وإنّ حرف الجرّ ﴿ عن ﴾ فى القول : ﴿ ينزع عنهما ﴾ ينبّه إلى أنّ الإنسان بفطرته يستر نفسه ويرتدى ثياب الاحتشام . أمّا اللّعين فإنّه يهدف رأساً إلى أقبح الغايات ، إلى كشف العورة وفضح السّوأة . وإنّ كلاً من الذّكر والأنثى على السّواء هدفٌ للّعين : ﴿ ليريهما سوءاتهما ﴾ إنّ المرأة ليست وحدها هدف إغواء اللّعين . وإنّ الرّجل ليس وحده هدف إغواء اللّعين كذلك .

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل كلاً من الزّوجين سكنًا ولباسًا للآخر . هذه هى الفطرة وهذا هو سواء السّبيل . وإنّ اللّعين يعمل جاهداً على إفساد الفطرة وصرف بنى آدم عن سواء السّبيل . وإنّ اللّعين فى سبيل تحقيق غايته الخسيسة يركب موجة الغريزة وينحرف بالميل الفطرىّ لكلٍّ من الجنسين للآخر عن سواء السّبيل . ولا يقنع اللّعين بأقلّ من نزع اللّباس الدّاخلىّ لكلٍّ من الجنسين وكشف كلٍّ من الرّجل والأنثى للآخر بالحرام عن عورته وسوأته ! إنّ هذه المعانى هى الّتى نصّت عليها الآية الكريمة وكأنّها بذلك تقول : إنّ وسيلة اللّعين لمنع دخول بنى آدم الحياة الطّيّبة فى الدّنيا أصلاً هى إفساد أخلاق كلٍّ من الجنسين من ناحية الجنس وغريزة النّوع .

ومن البيّن أنّ القول فى الآية الكريمة عن اللّعين وجنوده من الشّياطين[1] : ﴿ إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ يؤكّد فحوى ضمير التّثنيه فى القول : ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ إنّ اللّعين وجنوده يرون بنى آدم لابسين وغير لابسين من حيث لا يراهم بنو آدم ، وإنّ اللّعين إنّما ينزع عن كلٍّ من الجنسين لباسه من أجل إغراء كلٍّ من الجنسين بالآخر وإغوائه .

وإنّ القول فى ختام الآية الكريمة : ﴿ إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون ﴾ ، يفيد أنّ ربّ العزّة جعل الشّياطين أولياء وقرناء وأعواناً للّذين لا يؤمنون، أمّا المؤمنون فقد جاء عنهم قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة محمّد ﷺ[2] :

---

(١) الكشّاف ١ / ٥٤٥ . (٢) الآية ١١ .

﴿ ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ كما جاء عنهم قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة البقرة[1] : ﴿ الله ولىّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات . أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

وبهذا يتبيّن أنّ ثمّة هدفًا للّعين أبعد من نزع اللّباس وكشف السّوأة وهتك العرض . أمّا هذا الهدف الخسيس فهو الإخراج من الإيمان إلى الكفر ، ومن باب الأولى صرف بنى آدم عن الإيمان أصلاً . وما مصير الكافر ؟ دخول النّار . إنّ الهدف الأبعد اللّعين الّذى أخرج أبوينا من الجنّة أن يصرف بنى آدم عن الجنّة إلى النّار ، وإنّ هذا الهدف البعيد للّعين يتوسّل للوصول إليه بوسيلتين رئيسيّتين ، تترتّب أخراهما على أولاهما . الوسيلة الأولى إفساد أخلاق الذّكر والأنثى عن طريق توريطهما فى جريمة الزّنى . والوسيلة الأخرى توريطهما فى الكفر وفى ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى فى العبادة سواه .

والحقيقة أنّ فى النّفس شيئاً ينبغى الإفصاح عنه والتّنبيه عليه بل التّحذير منه . وهذا الشّىء هو المتعلّق بما يلاحظ على المسلمين فى مجموعهم حينما اقتبسوا من الحضارة المادّيّة ما يمكن أن يسمّى بالقرى السّاحليّة أو المنتجعات السّياحية نقلوها بعُجَرِها وبُجَرِها ، بخيرها وشرّها . ومن أعظم شرورها أنّها من أكبر الوسائل لتقريب الموادّ القابلة للاشتعال من النّيران ، أعنى نكبة الاختلاط بين الجنسين . وأكتفى بهذه الإيماءة . وإنّ هذه مناسبةٌ طيّبة لحثّ المهندسين المسلمين على أخذ زمام المبادرة ، وصبغ هذه المنتجعات بالصّبغة الإسلامية ، الّتى تجمع بين أن يُحْسِن الإنسان من ناحية وألاّ ينسى نصيبه من الدّنيا من ناحيةٍ أخرى .

ولمّا كان كفّار مكّة من الّذين فتنهم الشّيطان الرّجيم فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى هذه الفتنة فإلى .

---

(١) الآيــة ٢٥٧ .

الآيـــة رقم (٢٨)

قال تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ .

محور الآيات الكريمات كما هو واضح الحثّ على ارتداء اللّباس بأنواعه طاعةً للرّحمن ، والتّحذير من نزع اللّباس بأنواعه طاعةً للّعين . ومع أنّ الآية الكريمة لا تعيّن فاحشةً بعينها ، وهى ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والأقوال[١] فإنّا نستطيع أن نفهم أنّ الآية الكريمة يصحّ أن تعنى فاحشةً بعينها من هذا القبيل ، كأن يطوف الرّجال بالبيت الحرام عراةً فى النّهار ، ويطوف النّساء عراةً فى اللّيل . وهم إذا قالوا إنّهم قد وجدوا عليها آباءهم وصدقوا فإنّهم قد كذبوا فى القول الّذى جاء فى الآية الكريمة على لسانهم . والّذى يجعل هذا التّفسير معقولاً ارتكاب هذه الفاحشة فى المسجد الحرام ومجيء لفظ المسجد فى الآية الكريمة التّالية ، هذا إلى الأمر فى آيةٍ أخرى فى القسم بأخذ الزّينة عند كلّ مسجد ، وقد نصّ العلماء على أنّ سبب نزول الآية الكريمة الأخيرة ارتكاب فاحشة التخلّص من جميع الثّياب فى أثناء الطّواف بالبيت العتيق بحجّة أنّ تلك الثّياب عصوا الله تعالى فيها ! جاء على سبيل المثال فى صحيح مسلم[٢] عن ابن عبّاس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُرْيانة فتقول من يعيرنى تِطوافًا[٣] تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضُهُ أو كُلُّه فما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كلّ مسجد ﴾[٤] .

وتردّ الآية الكريمة فوراً على الّذين افتروا على الله تعالى الكذب : ﴿ قل إنّ الله

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قبح » ٣٧٣ . (٢) ١٨ / ١٦٢ .

(٢) التّطواف : بكسر التّاء المثناة فوق . وهو ثوب تلبسه تطوف به . صحيح مسلم ١٨ / ١٦٢ بشرح النّووىّ . (٣) الآية ٣١ من سورة الأعراف .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « فحش » ٣٧٣ .

لا يأمر بالفحشاء ﴾ والفَحْشاء بمعنى الفاحشة[١] وفى أسلوب الاستفهام الإنكارى تسألهم الآية الكريمة فى التّذييل : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنّ القوم يهرفون بما لا يعرفون . وإنّ غفلة القوم الّتى ليس عليها من مزيد تدفعهم إلى الكذب على الله تعالى وإلى الزّعم بأنّ الله سبحانه وتعالى أمرهم بإتيان أمورٍ ينهى العقل والشّرع عنها ! وتبادر الآية الكريمة التّالية إلى وضع البديل الصّحيح والقاعدة السّليمة وتشييد البناء المتين فإلى .

الآيـــة رقم (٢٩)

قال تعالى : ﴿ قل أمر ربّى بالقِسْط . وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وادعوه مخلصين له الدّين . كما بدأكم تعودون ﴾ .

بعد أن نفت الآية الكريمة السّابقة أن يأمر الله تعالى بفعل الفحشاء وذلك فى القول : ﴿ قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أثبتت هذه الآية الكريمة البديل الصّحيح وذلك فى القول خطابًا للمصطفى ﷺ أيضاً : ﴿ قل أمر ربّى بالقسط ﴾ والقسط بمعنى العدل[٢] وفى ضوء الأمر بعد ذلك مرّتين اثنتين : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وادعوه مخلصين له الدّين ﴾ يصحّ أن يكون المعنى : أقسطوا[٣] خاصّةً وأنّنا بصدد جملة ﴿ أمَر ربّى بالقسط ﴾ الّتى تفيد أنّنا بصدد أمرٍ من ربّ العالمين . يقول أبو حيّان[٤] : « وأقيموا معطوفٌ على ما ينحلّ إليه المصدر الّذى هو القِسْط أى بأن أقسطوا وأقيموا » وحينما نقف على بعض معانى الأصل اللّغوىّ نستطيع أن نفهم معانى أخرى إضافيّة للفظة القسط فى الآية الكريمة . إنّ القول : قَسَطَ يَقْسِط قَسْطًا بالفتح وقُسوطًا بمعنى جار وعدل عن الحقّ[٥] وأخذ قِسْطَ غيره وذلك

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٨ / ١١٥ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٨ والجلالين وتفسير النّسفىّ ٢/٥٠ وتفسير ابن عطيّة ٥/٤٧٨ والكشّاف ١/٥٤٥ والبحر المحيط ٤/٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ٥ / ٤٧٨ .

(٣) البحر المحيط ٤ / ٢٨٧ .

(٤) القاموس المحيط « قسط » .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قسط » ٤٠٣ .

جَوْر[١] والإقساط أن يُعْطَى قِسْطَ غيره وذلك إنصاف . ولذلك قيل : قَسَط الرّجل إذا جار . وأَقْسَطَ إذا عدل . قال : ﴿ وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا ﴾ وقال: ﴿ وأقسِطوا إنّ الله يحبّ المُقْسِطين ﴾[٢] إنّ القِسْط هو النّصيب بالعَدْل كالنّصَف والنّصَفة[٥] وإنّ العَدْل بفتح العين والعِدْل بكسرها يتقاربان . لكن العَدْل يستعمل فيما يُدْرَك بالبصيرة كالأحكام وعلى ذلك قوله : ﴿ أو عَدْل ذلك صياما ﴾ . والعِدْل والعديل فيما يُدْرِك بالحاسّة كالموزونات والمعدودات والمكيلات[٣] وكما أفاد القِسْط معنى إعطاء النّصيب صاحبه أفاد العدل المساواة[٤] ومن القِسْط بمعنى العدل القِسطاس بمعنى الميزان. قال الله سبحانه : ﴿ وزنوا بالقِسطاس المستقيم ﴾[٥].

ممّا سبق يصحّ أن نفهم القول : ﴿ قل أمر ربّى بالقسط ﴾ قل يا محمّد لأولئك الكاذبين وأخبرهم بأنّ ربّى جلّ وعلا الّذى ربّانى بنعمه وآلائه قد أمر بالقسط وبالعدل ، ونهى عن الجَوْر والظّلم . وإنّما يتحقّق القسط بإعطاء كلّ ذى حقّ حقه، فلا تُصْرَف العبادة ــ مثلاً ــ عن الله تعالى الّذى يستحقّها وحده لا شريك له، ولا يُعْصَى المصطفى ﷺ وهو الّذى أُمِرْنا بطاعته ، ولا يظلم الإنسان نفسه بالزّجّ بها فى مهاوى الرّدى . وكيف يتحقّق القسط بهذا المعنى ؟ يتحقّق عن طريق سلوك الصّراط المستقيم الّذى هدانا الله تعالى إليه وذلك باتّباع تعاليم القرآن الكريم معجزة دين الإسلام الكبرى الخالدة ، وباتّباع تعاليم سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم . والمعروف أنّ دين الإسلام أمر بالوسطيّة فى كلّ شىء وقد قال تعالى[٦] : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيداً ﴾ إنّ المسلم لله ربّ العالمين حينما يسير بعون الله تعالى فى الصّراط المستقيم يكون بإذن الله تعالى قد حقّق معنى الأمر فى القول : ﴿ قل أمر

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قسط » ٤٠٣ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قسط » ٤٠٣ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « عدل » ٣٢٥ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « عدل » ٣٢٥ .
(٥) انظر معجم مقاييس اللّغة « قسط » ٥ / ٨٦ .
(٦) سورة البقرة ١٤٣ .

ربّى بالقسط ﴾ وقد عرفنا أنّ المعنى : قل أمر ربّى بأن تقسطوا وتعدلوا . أو أنّ المعنى أقسطوا .

وبعد الأمر بالقسط وبالسّير فى الصّراط المستقيم يكون فى الآية الكريمة أمرٌ بالاتّباع لا الابتداع وذلك فى القول : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد ﴾ وأمرٌ بالإخلاص فى العمل وذلك فى القول : ﴿ وادعوه مخلصين له الدّين ﴾ وكأنّنا بصدد ذِكْرِ للشّرطين اللّذين يتقبّل الله تعالى الأعمال بفضله إذا تحقّقا وهما صحّة العمل بأن تكون الأعمال صالحةً بمقياس الإسلام ، وصلاح النّية بأن يراد بتلك الأعمال وجه الله تعالى .

إنّ لفظ المسجد فى القول : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد ﴾ ينبّه إلى أهمّيّة إقام الصّلاة الرّكن الثّانى من أركان الإسلام بعد الشّهادتين . وإنّ جملة : ﴿أقيموا وجوهكم ﴾ تعنى الاتّجاه بكلّ الجسد إلى المساجد الّذى أذن الله تعالى أن ترفع ليذكر فيها اسمه جلّ وعلا ، والاتّجاه بكلّ الحواسّ والمشاعر والاهتمام إلى بيوت الله تعالى لإقام الصّلاة . إنّ الجزئيّة الكريمة : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد ﴾ تختار جملة ﴿ أقيموا ﴾ بالذّات . وإقامة الشّىء توفيةُ حقّه . قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىءٍ حتّى تقيموا التّوراة والإنجيل ﴾ أَىْ تُوَفّون حقوقهما بالعلم والعمل . وكذلك قوله : ﴿ ولو أنّهم أقاموا التّوراة والإنجيل ﴾ ولم يأمر تعالى بالصّلاة حيثما أمر ولا مدح به حيثما مدح إلاّ بلفظ الإقامة تنبيهًا أنّ المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها نحو ﴿ أقيموا الصّلاة ﴾[1] كما تختار الجزئيّة الكريمة لفظ الأوجه دليلاً على كامل الجسد لأنّ الوجه أشرف أجزاء الجسد. إنّ لفظ المسجد يذكّر بالصّلاة وبذكر الله تعالى . وإنّ جملة ﴿ أقيموا ﴾ تذكّر بإقام الصّلاة . وإنّ لفظ الوجه يذكّر بوجهة المسلم لله ربّ العالمين إلى المسجد دليلاً على توجيهه وجهه إلى الله تعالى . وقد جاء على لسان إبراهيم أبى الأنبياء عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ إنّى وجّهت وجهى للّذى

---

(١) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قوم » ٤١٨ .

(٢) سورة الأنعام ٧٩ .

فطر السّماواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا من المشركين ﴾ وإنّ فى النّصّ على كلّ مسجدٍ تنبيهًا إلى فضل إقامة الصّلاة فى المساجد ، وإلى وجوب عمارة المساجد حسّيًّا ومعنويّا . وإذا كنّا فهمنا من القول : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد﴾ شرط صحّة العمل بمقياس الإسلام النّاسخ لكلّ دينٍ سواه ، فإنّ هذا الشّرط يعنى الاتّباع ويأمر به وينهى عن الابتداع فى الدّين ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ .

وكما فهمنا الشّرط الأوّل لقبول الله تعالى الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام فضلاً منه جلّ وعلا ونعمة من القول : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد ﴾ فهمنا الشّرط الآخر ، وهو صلاح النّيّة وإرادة وجه الله تعالى وحده لا شريك له من القول : ﴿ وادعوه مخلصين له الدّين ﴾ فإنّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَل . وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتّى يكون خالصاً صوابًا . والخالص أن يكون لله . والصّواب أن يكون على السّنّة.[2] إنّ الجزئيّة الكريمة : ﴿ وادعوه مخلصين له الدّين ﴾ تأمر بإخلاص العباد العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وإفراده جلّ وعلا بالعبادة . ولا يتمّ ذلك إلاّ عن طريق القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ المبيّنة له . وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزِّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون ﴾ .

وفى سبيل حمل الآية الكريمة المؤمنين على العمل فى الحياة الأولى من أجل حسن الثّواب فى الآخرة ، وحمل غير المؤمنين على الإيمان بالبعث والحساب والجزاء وعلى اعتناق دين الإسلام يجىء فى التّذييل القول : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ وهو قولٌ يذكّرنا بمثل هذه الآية الكريمة من سورة الأنبياء[4] قال تعالى : ﴿ يوم نطوى السّماء كطىّ السّجلّ للكتب . كما بدأنا أوّل خَلْقٍ نعيده . وَعْدًا علينا إنّا كنّا فاعلين ﴾ وقد رشّح هذا التّذييل الآية الكريمة التّالية كى تتحدّث عن الفريقين فإلى .

---

(١) سورة المائدة ٣ .
(٢) الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر لابن تيمية ٢٧ .
(٣) سورة النّحل ٤٤ .
(٤) الآية ١٠٤ .

الآيـــة رقم (٣٠)

قال تعالى : ﴿ فريقاً هَدَى وفريقاً حقّ عليهم الضّلالـة . إنّهـم اتّخـذوا الشّـياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون ﴾ .

أمّا الّذين هداهم الله تعالى ففريق المؤمنـين ، وأمّـا الّذيـن حقّـت عليهـم الضّلالـة ففريق الكافرين . ومن البيّن اختلاف التّعبيرين . أمّا المؤمنون فقد هداهم الله تعـالى. وكأنّ هذا القـول : ﴿ فريقـاً هـدى ﴾ يـأخذ بسببٍ مـن قولـه عـزّ مـن قـائل[1] : ﴿ والّذيـن اهتـدوا زادهـم هـدًى وآتـاهم تقواهـم ﴾ وقولـه تعـالى[2] : ﴿ والّذيـــن جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وأمّا الكافرون فقد أصـرّوا علـى كفرهم وعلى صدّهم عـن سـبيل الله تعـالى حتّـى حقّـت عليهـم الضّلالـة ولزمتهـم الغَواية فزادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم . وبهذا يكون الكـافرون هـم المسئولين عن الضّلالة الّتى لصقت بهم ولزمتهم .

وتبيّن الآية الكريمة السّبب الّذى من أجله حقّت علـى القـوم الضّلالـة : ﴿ إنّهـم اتّخـذوا الشّـياطين أوليـاء مـن دون الله ﴾ وهـل الّـذى يتّخـذ الشّـياطين نصـراءه ونصحاءه من دون الله تعالى يكون مصيره غير الضّلالة والسّفاهة وعمـى البصـيرة ؟ والعجيب فى أمر هـؤلاء الضّـالّين المضلّـين أنّهـم يعتقـدون أنّهـم هـم المهتـدون وأنّ المؤمنين هم الضّالّون : ﴿ ويحسبون أنّهـم مهتـدون ﴾ وليس وراء هـذا الـدّرك مـن عمى البصيرة وراء . وفى مثـل هـذا المعنـى جـاء قـول الحـقّ جـلّ وعـلا فـى سـورة المطفّفين[3] : ﴿ إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون . وإذا مـرّوا بهـم يتغـامزون . وإذا انقلبـوا إلى أهلهـم انقلبـوا فكهـين . وإذا رأوهـم قـالوا إنّ هـؤلاء

---

(١) سورة محمّد ١٧ .

(٢) سورة العنكبوت ٦٩ .

(٣) الآيات ٢٩ ـ ٣٦ .

على الأرائك ينظرون . هل ثُوِّب الكفّار ما كانوا يفعلون ﴾ وقد علّق الطّبرىّ[1] على الآية الكريمة : « وهذا من أبين الدّلالة على خطأ قول من زعم أنّ الله لا يعذّب أحدًا على معصيةٍ ركبها أو ضلالةٍ اعتقدها إلاّ أن يأتيها بعد علمٍ منه بصواب وجهها[2] فيركبها عنادًا منه لربّه فيها ، لأنّ ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضّلالة الّذى ضلّ وهو يحسب أنّه هادٍ وفريق الهدى فرق . وقد فرّق الله بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية » إنّ المرء مؤاخذٌ على الخطأ الّذى يأتى والذّنب الّذى يرتكب إن اعتقد أنّه على هدى ، لأنّ إتيان الخطأ وارتكاب الذّنب بسبب اتّباع خطوات الشّيطان الرّجيم والانسياق وراء هوى النّفس الأمّارة بالسّوء .

ومن مظاهر ضلال الكافرين تحليلهم ما حرّم الله تعالى كالطّواف بالبيت الحرام عراةً ، وتحريمهم ما أحلّ الله تعالى من الأطعمة . وحول هذه المعانى تدور .

الآيـــة رقم (٣١)

قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ .

هذه هى المرّة الثّالثة الّتى تبدأ آيةٌ كريمةٌ فى القسم بالقول : ﴿ يا بنى آدم ﴾ وذلك من بين أربع مرّاتٍ فى هذا القسم فى أربع آياتٍ كريمات ، وكذلك هى المرّة الثّالثة الّتى يجىء فيها القول : ﴿ بنى آدم ﴾ من بين خمس مرّاتٍ فى سورة الأعراف الّتى جاء فيها فى الآية الكريمة الثّانية والسّبعين بعد المائة القول : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بنى آدم ﴾ ومن بين سبع مرّات فى القرآن الكريم كلّه جاء ذكر بنى آدم . أمّا المرّة السّادسة ففى الآية الكريمة السّبعين من سورة الإسراء . قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم ﴾ وأمّا المرّة السّابعة والأخيرة ففى الآية الكريمة السّتّين من سورة يس. قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألاّ تعبدوا الشّيطان ﴾ .

وإنّ ثمّة لطيفةً أخرى اشتمل عليها آى هذا القسم إضافةً إلى اشتماله وَحْدَه أربع مرّاتٍ على هذا النّداء : ﴿ يا بنى آدم ﴾ أمّا هذه اللّطيفة فهى الّتى أشار إليها ابن

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٨ / ٢١٨ .

(٢) أى كما بيّنه الشّارع الحكيم .

تيمية رحمه الله تعالى رحمةً واسعة والّتى تفيد اشتمال هذا القسم على معانٍ فى أصول الدّين وشرائعه الجامعة الّتى اتفقت عليها الرّسل يقول[١] فى شأن هذا الكتاب العزيز : « وهيمن على ما بين يديه من الكتاب . وذلك يعمّ الكتب كلّها، شاهداً وحاكماً ومؤتمناً . شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصّادقة ، وقرّر ما فى الكتب المتقدّمة من أصول الدّين وشرائعه الجامعة ، الّتى اتّفقت عليها الرّسل ، كالوصايا المذكورة فى آخر الأنعام ، وأوّل سورة الأعراف ، وسورة سبحان ، ونحوها من السّور ..... » وقال تعالى[٢] : ﴿ قل أمر ربّى بالقسط . وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وادعوه مخلصين له الدّين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حَقَّ عليهم الضّلالة . إنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون . يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . قل من حرّم زينة الله الّتى أخرج لعباده والطّيّبات من الرّزق . قل هى للّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا خالصةً يوم القيامة . كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعلمون . قل إنّما حرّم ربّى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

من البيّن حديث الآية الكريمة فى قضيّةٍ من أهمّ قضايا القسم وهى قضيّة اللّباس فمع سبب النّزول ابتداءً .

جاء فى صحيح مسلم[٣] فى سبب النّزول : « عن ابن عبّاس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُرْيانةٌ فتقول من يعيرنى تِطْوافًا تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضُهُ أو كُلُّه فما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عن كلّ مسجد ﴾ يقول الإمام النّووىّ فى شرحه للحديث : « قوله : فتقول من يعيرنى تِطْوافًا ، هو بكسر التّاء المثنّاة فوق . وهو ثوبٌ تلبسه المرأة تطوف به ، وكان أهل الجاهليّة يطوفون عراةً ويرمون ثيابهم

---

(١) الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ١ / ٣ . (٢) سورة الأعراف ٢٩ - ٣٣ .
(٣) ١٨ / ١٦٢ .

ويتركونها ملقاةً على الأرض ولا يأخذونها أبداً ويتركونها تداس بالأرجل حتّى تَبْلى ويُسَمَّى اللَّقَى حتّى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة فقال تعالى : ﴿ خذوا زينتكم عند كلّ مسجد ﴾ وقال النّبىّ ﷺ : لا يطوف بالبيت عريان » عن ابن عبّاس قال : « كانوا يطوفون عراةً . الرّجال بالنّهار والنّساء باللّيل »[1] وفى صحيح مسلم أيضاً عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراةً إلاّ الحُمْس . والحُمْس قريشٌ وما ولدت . كانوا يطوفون بالبيت عراةً إلاّ أن تعطيهم الحُمْس ثيابًا فيعطى الرّجالُ الرّجال والنّساء النّساء[2] وفى غير مسلم: فمن لم يكن له من العرب صديقٌ بمكّة يعيره ثوباً ، ولا يَسارٌ يستأجره به ، كان بين أحد أمرين : إمّا أن يطوف بالبيت عريانا ، وإمّا أن يطوف فى ثيابه . فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسّه أحد . وكان ذلك الثّوبُ يُسَمَّى اللَّقى[3] فلمّا بعث الله رسوله ﷺ وأنزل عليه : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عن كلّ مسجد ﴾ أذّن مؤذّن الرّسول ألاّ يحجّ البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . وكان النّداء بمكّة سنة تسع[4] .

تنادى الآية الكريمة بنى آدم ، وفى ذلك تنبيهٌ لهم على إنسانيّتهم ، وتذكيرٌ لهم بالمواهب الّتى خصّ الله تعالى بها أباهم والّتى لم يسلبهم جلّ وعلا إيّاها . والآية الكريمة تأمر بنى آدم بأن يأخذوا زينتهم عند كلّ مسجد . ويرتبط بالأخذ فى المحسوسات والمعنويات شدّة الأخذ وقوّة القبض . جاء خطابًا لبنى إسرائيل فى سورة الأعراف[5] هذه مثلاً قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾ وقال تعالى[6] : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١١٨/٨ وتفسير ابن كثير ٢١٠/٢ ومعانى القرآن للفرّاء ٣٧٧/١ وانظر أسباب النّزول ٢٥٩ و٢٦٠ .

(٢) تفسير القرطبىّ ٢٦٢٥ وانظر البحر المحيط ٢٨٩/٤ .

(٣) انظر تفسير القرطبىّ ٢٦٢٥ والبحر المحيط ٢٨٩/٤ .

(٤) البحر المحيط ٢٨٩/٤ .

(٥) الآية ١٧١ .

(٦) سورة هود ١٠٢ .

ومعنى الأمر بأخذ الزّينة الاستمساك بها وعدم التّهاون فى حقّها عند الذّهاب إلى المسجد من أجل الصّلاة وذكر الله تعالى .

ولمّا كانت الزّينة ضربًا من اللّباس أو الثّياب أساسًا ، إضافةً إلى ما يقترن بها من نظافةٍ وحسن مظهرٍ وتطيّبٍ وما إلى ذلك فهذا معناه أنّ الآية الكريمة تضيف إلى الأنواع الثلاثة السّابقة من اللّباس المحسوس والمعنوىّ نوعاً رابعاً من الثّياب هو لباس الزّينة . لقد تحدّثت أولى آيات القسم عن اللّباس الّذى يوارى السّوءة ، واللّباس الّذى يُتَجَمّل به ويُتَزَيَّن ، وعن لباس التقوى المعنوىّ . فثمّة لباس الاحتشام والكمال . ولباس الزّينة والجمال . ويتوّج اللّباسان بلباس التّقوى . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تأمر بالأخذ بالزّينة . ومن الزّينة الثّياب . ويصحّ أن تكون ثياب الزّينة هنا ثياب الزّينة والجمال فى الآية الكريمة الأولى إذا كانت الثّياب محقّقةً للشّروط الّتى ينبغى توافرها لصحّة الصّلاة . ومن أفضل اللّباس البياض . روى الإمام أحمد عن ابن عبّاس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « البسوا من ثيابكم البياض فإنّها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم وإنّ خير أكحالكم الإثمد فإنّه يجلو البصر وينبت الشّعر . هذا حديثٌ جيّد الإسناد رجاله على شرط مسلم[1] .

ولا تأتى لفظة الزّينة مطلقةً بل مضافةً ومقترناً بها ضمير جماعة المخاطبين : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ ومع أنّ صلاة المرأة فى بيتها أفضل فإنّها لا تُمْنع من الصّلاة فى المسجد. ولكلٍّ من الجنسين ثيابه الّتى يتحقّق فيها الاحتشام والكمال والجلال والجمال . والّذى يبيّن حدود الزّينة المسموح بها النّهى عن الإسراف فى الآية الكريمة المتّجهة إلى الأكل والشّرب أساسًا وإلى الزّينة تبعًا . وإنّ من ألطف الألفاظ الّتى تساعد على فهم حدود الزّينة فى حقّ الرّجال بخاصّة ، وهم الّذين يتّجه إليهم الخطاب أساسًا ، لفظة « مزيّن » فى استعمالنا العادىّ دليلاً على حلاّق الرّجال . إنّ ممّا يُعْنَى به المزيّن محاولة تزيين وجوه الرّجال الّتى زيّنها الله تعالى بلحاها كما زيّن النّساء بحياها[2] وبهذا تكون لفظة الزّينة شاملةً لثياب الوقار والكمال والجلال والجمال وشاملةً غير الثّياب عند الصّلاة بما فى ذلك الطّيب لأنّه من الزّينة والسّواك

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢١٠ .

(٢) بحيائها ، على الإتباع للحاها .

لأنّه من تمام ذلك[١] وإنّ لكلٍّ من الجنسين ثيابه الخاصّة به . وإنّ فى النّصّ على كلّ مسجدٍ تنبيهاً على مجموعةٍ من الأمور منها العناية ببناء المساجد وعمارتها ماديًّا ومعنويًّا وذلك بإصلاحها الدّائم وأداء الصّلوات جماعةً فيها والاجتهاد فى نظافتها والعناية بها ودفع صنوف الأذى عنها . وليس بخافٍ دلالة لفظةِ مسجدٍ على صفة السّجود وهى الهيئة من الصّلاة الأكثر دلالةً على التّذلّل لله تعالى من ناحية ، وعلى قرب العبد من بارئه جلّ وعلا من ناحيةٍ أخرى على نحو ما بيّن الحديث النّبوىّ الشّريف . وحينما تكون الصّلاة جماعةً فى كلّ مسجدٍ وحينما يحافظ على الصّلاة وتقام بكلّ أركانها وواجباتها وسننها يكون فى كلّ ذلك الدّلالة على المحافظة بإذن اللّه تعالى على ما وراء الصّلاة من أركانٍ وواجباتٍ وسنن .

وإذا كان القول : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ ﴾ يُعْنَى بغذاء الأرواح فإنّ القول : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ يُعْنى بغذاء الأبدان . وفى تقديم غذاء الرّوح دليلٌ على تقدّمه وتفوّقه لأنّه ذو علاقة بلباس التّقوى الّذى هو خير . وثمّة نهىٌ عن الإسراف فى الأكل والشّرب ونصٌّ على أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يحبّ المسرفين . وقد بيّنت سنّة المصطفى ﷺ معنى نهى الآية الكريمة عن الإسراف فى مثل هذا الحديث الّذى رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب العبدىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه . حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه . فإن كان فاعلاً لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنَفَسه[٢] .

وإذا كان النّهى عن الإسراف منصرفاً إلى الطّعام والشّراب فى المقام الأوّل فإنّه ينصرف كذلك تبعاً إلى الزّينة فيجب ألاّ تتجاوز الحدود المسموح بها فى حقّ النّاس بل وفى حقّ المساجد كذلك . إنّ هذه الأمّة المسلمة قد ميّزها الله تعالى بالوسطيّة فى كلّ أمورها . أمّا حدود الزّينة بأنواعها فى حقّ الرّجال والنّساء على السّواء فقد بيّنها الشّارع الحكيم بحيث يكون الرّجل دائماً رجلاً والأنثى دائماً أنثى. وأمّا حدود الزّينة فى حقّ المساجد فقد بيّنها الشّارع الحكيم كذلك بحيث لا تصرف القلب عن الخشية وبحيث لا يتلهّى بها النّظر . وتتحدّث الآية الكريمة التّالية فى الزّينة . وهذه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢١٠ .

الآيـــة رقم (٣٢)

قال تعالى : ﴿ قُلْ من حرّم زينة الله الّتى أخرج لعباده والطّيّبات من الرّزق . قل هى للّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا خالصةً يوم القيامة . كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعلمون ﴾ .

أمرت الآية الكريمة السّابقة بأخذ الزّينة وبالأكل والشّرب ونهت عن الإسراف فى الأكل والشّرب صراحةً وفى الزّينة ضمنًا . وفى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها حديثٌ فى الزّينة وفى الطّيّبات من الرّزق طعاماً وشراباً . إنّ الآية الكريمة فى أسلوب الإنكار تسأل على لسان المصطفى ﷺ : ﴿ قل من حرّم زينة الله الّتى أخرج لعباده والطّيّبات من الرّزق ﴾ وكما انسحب الأمر فى جملة ﴿ قل ﴾ على المصطفى ﷺ ينسحب على كلّ مؤمن . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة فى مجال الإنكار على من تجرّءوا فحرّموا ما أحلّ الله تعالى . وربّما كانت جراءة من حرّم ما أحلّ الله تعالى أكبر من جراءة من ارتكب المحظورات فاعتدى على ما حرّم الله تعالى . وإنّما كانت الجراءة أكبر لأنّ من يأتى ما حرّم الله تعالى يعلم علم اليقين أنّه يخالف أحكام الله تعالى ويعصى أوامره . أمّا الّذى يحرّم ما أحلّ الله تعالى فكأنّه فى حكم من يشرّع فى الدّين بباعث الشّعور فى الأعماق بالنّقص فى الدّين والله سبحانه وتعالى يقول[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد . فثمّة لباس الزّينة والجمال . وقد عرفنا أنّ الإسلام دين الوسطيّة فى كلّ شىء بما فى ذلك زينة اللّباس بحيث يظلّ الرّجل رجلاً والأنثى أنثى . وثمّة لباس الاحتشام والوقار . ومن البيّن أنّ لباس الزّينة امتدادٌ للرّيش أو الرّياش . وبذلك نكون بصدد لباس الاحتشام والوقار والجلال والكمال ، وبصدد ثياب الزّينة والجمال . ويتوّج هذان النّوعان من ثياب الكمال والجمال بلباس التّقوى الّذى هو

---

(١) سورة المائدة ٣ .

خير . وبهذا تكون ثياب الزّينة والجمال من متعلّقات التّقوى ، وبهذا يتبيّن أنّ الإسلام جلالٌ وجمالٌ وكمال . إنّ ثياب الاحتشام جلال . وإنّ ثياب الزّينة جمال . وإنّ ثياب التّقوى كمال . روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ قال : كلوا واشربوا وتصدّقوا فى غير مخيلة ولا سرف فإنّ الله يحبّ أن يرى نعمته على عبده». ورواه النّسائىّ وابن ماجة[1] وروى الإمام أحمد أيضاً وأهل السّنن بإسنادٍ جيّدٍ عن سمرة بن جندب قال . قال رسول الله ﷺ : عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنّها أطهر وأطيب وكفّنوا فيها موتاكم [2] .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد أحلّ لنا لباس الزّينة والجمال فليس من حقّ مخلوقٍ أن يحرّم ما أحلّ الله تعالى لعباده . وعليه فالإسلام دين الجمال والجلال معًا . إنّ الجمال يزيد الجلال وقارًا ووضاءة . ويتوّج هذا وذاك بكمال التّقوى . إنّ الأمّة الإسلاميّة الّتى تجتهد فى استعادة مجدها الغابر بحاجةٍ إلى أن تولى الجمال العناية الّتى يستحقّ . ما أجمل منظر المسلمين وهم يخرجون مثلاً من المساجد جماعاتٍ بعد أداء صلاة الجمعة وكأنّهم لبياض ثيابهم تلك الأسراب من الحمائم البيض الّتى تملأ العين لذّةً والنّفس بهجة . وأخلق بالمسلمين توسيع دائرة الجمال كى يتجلّى فى سائر شئون حياتهم وفى أثناء أدائهم شعائر دينهم كالحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام . إنّ الأمر بأخذ الزّينة عند كلّ مسجدٍ يبدأ ببيت الله تعالى الحرام كما عرفنا فبسبب طواف المشركين عراةً بالبيت العتيق نزل الأمر بأخذ الزّينة عند كلّ مسجد . وإنّ المسلمين حينما يأخذون أنفسهم فى الحجّ مثلاً بتعاليم الآية الكريمة لن تقع العين بإذن الله تعالى إلاّ على ما يبهج النّفس ويثلج الصّدر .

وإنّ الله سبحانه وتعالى قد أحلّ لنا الطّيّبات من الرّزق والمستلذّات من الأطعمة والأشربة غير الخبائث وغير المستقذرات منها . ومن رحمة الله تعالى بعباده وفضله عليهم أنّ ما حرّمه جلّ وعلا علىَ عباده من الأطعمة والأشربة الخبيثة قليل . وبسبب قلّته وذلّته تستغنى النّفس السّويّة عنه بالطّيّبات من الرّزق الّتى لا يأتى عليها الحصر كمًّا وكيفًا ، وبالتّالى هى لا تحسّ بفقد تلك الخبائث . وإنّ ما قيل فى

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٠ .

جراءة المحرّمين ما أحلّ الله تعالى من الزّينة واعتدائهم على حقّ الله تعالى يقال عن الّذين يحرّمون ما أحلّ الله تعالى لعباده من الطّيّبات المستلذّات . إنّ الإنكار إذا كان ينصرف إلى المشركين الّذين طافوا بالبيت عراةً وحرّموا البحيرة والسّائبة والوصيلة والحامى وما إلى ذلك فإنّه ينصرف بطريق الأَوْلى إلى من حرّم فى الإسلام زينة الله تعالى وحرّم الطّيّبات من الرّزق . وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تأخذ بسبب من قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أَحَلَّ الله لكم ولا تعتدوا. إنّ الله لا يحبّ المعتدين . وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّبًا . واتّقوا الله الّذى أنتم به مؤمنون ﴾ .

وكما أُمِرَ المصطفى ﷺ فى صدر الآية الكريمة أن يَسْأَلَ أُمر بعد ذلك أن يجيب وذلك فى القول : ﴿ قل هى للّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا خالصةً يوم القيامة ﴾ إنّ زينة الله تعالى الّتى أخرجها جلّ وعلا لعباده والطّيبات من الرّزق ، والحلال من الأطعمة والأشربة هى للّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا على جهة الاستحقاق والأهليّة وإن شاركهم فيها غيرهم من المشركين بسبب هوان هذه الحياة الأولى على الله تعالى وإلاّ ما سقى جلّ وعلا الكافر فيها شربة ماء . روى التّرمذىّ[2] عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : لو كانت الدّنيا تَعْدِل عند الله جَناح بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شَرْبة ماء . وإنّ زينة الله تعالى والطّيّبات من الرّزق هى خالصةٌ للّذين آمنوا يوم القيامة لأنّهم وحدهم دون سواهم يستحقّونها بسبب إفرادهم له جلّ وعلا بالعبادة .

وفى التّذييل : ﴿ كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعلمون ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ فى مثل ذلك التّفصيل والتّبيين والتّوضيح يفصّل الله تعالى آياته البيّنات وحججه البالغات لقومٍ يعلمون وأناسٍ يفقهون وقد قال تعالى[3] : ﴿ قل هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون . إنّما يتذكّر أولو الألباب ﴾ .

وفى الآية الكريمة التّالية شىءٌ من التّفصيل لما حرّم الله تعالى فإلى .

---

(١) سورة المائدة ٨٧ و٨٨ .

(٢) الجامع الصّحيح ، سنن التّرمذىّ ٤ / ٤٨٥ .

(٣) سورة الزّمر ٩ .

الآيـــة رقم (٣٣)

قال تعالى : ﴿ قُلْ إنّما حرّم ربّى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ .

على غرار الآية الكريمة السّابقة تبدأ هذه الآية الكريمة بجملة : ﴿ قل ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ آمرةً له بأن يقول للّذين حرّموا ما أحلّ الله تعالى فى المقام الأوّل بأنّ ما حرّم الله تعالى محصورٌ فيما سوف تذكره الآية الكريمة . والمعروف أنّ ﴿ إنّما ﴾ تفيد القصر والحصر . والمعنى أنّ ربّ العزّة إنّما حرّم هذه الكلّيّات وحدها، وأنّه ليس من حقّ مخلوقٍ أن يحرّم إلاّ ما حرّم الله تعالى ورسوله ﷺ بوحيٍ منه جلّ وعلا . وإنّ حصر المحرّمات فى هذه الكلّيّات الخمس يعنى أنّ الخبائث بشقّيها المعنوىّ والحسّىّ هى الّتى حرّمها الله تعالى . ووراء ذلك فكلُّ شىءٍ حلال. ما أقلّ ما حرّم الله تعالى علينا حرصاً على سلامة ديننا وجسدنا وعقلنا وعِرْضنا ودَمِنا بالقياس إلى ما أحلّ الله تعالى لنا من الطّيّبات والمستلذّات . وإنّ الوقوف عند كلٍّ من هذه الكلّيّات الخمس المحرّمة يكشف عن جزءٍ من الحكمة وراء التّحريم . وتبدأ الآية الكريمة بتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . والفواحش جمع الفاحشة ، وهى ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال . ومن هو العاقل الّذى لا يسعد بتحريم الفواحش الظّاهرة المعلنة ، والباطنة الخفيّة . لنبدأ بأكبر الكلمات فحشًا وقبحاً وهى كلمة الكفر أو الشّرك بالله تعالى ، وبأكبر الأفعال فحشاً وقبحاً وهى ممارسة الكفر أو الشّرك بالله تعالى . إنّ كلاً من الإخفاء والإعلان غايةٌ فى السّوء . وقل الشّىء نفسه عن طواف المشركين بالبيت عراةً ، الرّجال نهارًا والنّساء ليلاً بزعم أنّهم لا يعبدون الله تعالى فى ثيابٍ عصوه جلّ وعلا فيها . إنّهم بتعليلهم السّخيف بمنزلة الّذى يستجير من الرّمضاء بالنار . وقل الشّىء ذاته عن الزّنى علانيةً وسرًّا . وهكذا يتبيّن اتّساع دلالة الفواحش الظّاهرة والباطنة كى تشمل كلّ الفواحش .

وإذا كانت الفواحش الّتى حرّمها الله تعالى تشمل ما اشتدّ قبحه من الأقوال والأفعال فإنّ الإثم الّذى حرّمته الآية الكريمة بعد ذلك وهو بمعنى المعصية يشمل كلّ المعاصى ، الصّغيرة والكبيرة ، اللاّزمة والمتعدّية . وبهذا تشمل الفواحش والإثم كلّ أنواع المعاصى . وإذا كان من الفواحش والمعاصى ما هو لازمٌ ومتعدّ ، وكأنّ الفواحش تنصرف أساسًا إلى ما عظم قبحه من الذّنوب ، وكأنّ الإثم ينصرف أساسًا إلى مطلق الذّنب فإنّ ثمّة تحوّلاً إلى ذنبٍ متعدٍّ بطبعه وهو البغى . قال تعالى : ﴿ والبغى بغير الحقّ ﴾ إنّ لفظ البغى يذكّرنا بمثل هذا القول : بغى الجرح إذا تجاوز الحدّ فى فساده ، وبغت المرأة بغاءً إذا فَجَرَتْ وذلك لتجاوزها ما ليس لها[1] إنّ البغى هو تجاوز المنزلة بباعث الكِبْر واحتقار النّاس إلى ما ليس له وليس من حقّه. وتؤكّد الآية الكريمة معنى البغى بالقول : ﴿ بغير الحقّ ﴾ والمعنى أنّ الباغى ذاته لو سئل عن السّبب الباعث له على البغى ، وعن السّبب الّذى من أجله استحقّ الآخرون أن يظلمهم ، لم يجد عذرًا ولا مبرّرًا سوى الانصياع للشّيطان الرّجيم والانسياق وراء هوى النّفس الأمّارة بالسّوء .

وقد حرّمت الآية الكريمة بعد ذلك الإشراك مع الله تعالى فى العبادة سواه وذلك فى القول : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا ﴾ ومن البيّن التّجانس بين الزّيادتين المقوّيتين للمعنى المؤكّدتين له بشأن كلٍّ من البغى والشّرك . إنّ الزّيادة : ﴿ بغير الحقّ ﴾ رشّحت للزّيادة : ﴿ ما لم ينزّل به سلطانًا ﴾ إنّ البغى دائماً بغير حقّ . وإنّ الشّرك دائماً لم ينزّل الله تعالى به سلطاناً ولا حجّة . وإذا كانت الزّيادة فى حقّ البغى : ﴿ بغير الحقّ ﴾ ربّما أفادت تنبيه البغاة إلى رشدهم وأعادتهم إلى صوابهم بمعنى أنّهم حينما يُسْألون عن سبب البغى ربّما كفّوا عن بغيهم ، فإنّ الزّيادة فى حقّ الشّرك : ﴿ ما لم ينزّل به سلطانًا ﴾ تفيد أنّ بعض المشركين ربّما حينما يُسْألون عن الحجّة الّتى اعتمدوها فى شركهم يفيقون من غفلتهم ويتوبون إلى الله تعالى من شركهم . إنّ الشّرك كالبغى لا حجّة له ولا سلطان . بل إنّا يصحّ أن نفهم الشّرك على أنّه أكبر مظاهر البغى بغير الحقّ ، لأنّ صرف العبادة عن الله

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « بغى » ٥٥ .

تعالى المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له ضربٌ من البغى على مقام الذّات العليّة . إنّ العبادة حقٌّ خالصٌ لله تعالى ، وإنّ الله تعالى جعل هذا الحقّ خالصاً له جلّ وعلا. فأىّ بغيٍ وراء صرف العبادة عن الله تعالى إلى سواه .

وهكذا يتبيّن التّحوّل اللّطيف من النّهى عن كبير الذّنوب أعنى الفواحش إلى عامّها أعنى الإثم إلى البغى بغير الحقّ فى حقّ العباد الموطّئ إلى أسوأ أنواع البغى فى حقّ ربّ العباد .

ويأتى أخيراً النّهى عن ارتكاب نوعٍ معين من أنواع الشّرك بالله تعالى وذلك فى القول : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . إنّ المشركين ليس عندهم حجّةٌ ولا سلطان ، وإنّ من مظاهر الشّرك الّذى لم ينزّل الله تعالى به سلطانًا القول على الله تعالى بغير علم والزّعم مثلاً بأنّ لله تعالى صاحبةً وولدا : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾ .

إنّ القول على الله تعالى بغير علم والإشراك بالله تعالى متعلّقان بالذّات العليّة . وإنّ البغى بغير الحقّ على عباد الله تعالى وطّأ للحديث عن أكبر مظاهر البغى وهو الشّرك ، وكأنّ البغى بغير الحقّ يشمل كلّ أنواع البغى ، بما فى ذلك البغى على الذّات العليّة فيما دون الإشراك بالله تعالى ما لم ينزّل به سلطانًا . وكأنّ العباد يخلص لهم تحريم الفواحش والإثم مقابل تحريم الشّرك والقول على الله تعالى بغير علم . وكأنّ البغى بغير حقّ بسبب انطلاقه من العباد وتوطئته للحديث عن أهم مظاهر البغى وهو الشرك ، شركةٌ بين العباد وبين ما هو حقٌّ خالصٌ لربّ العباد . إنّ لله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر . فهو جلّ وعلا وحده لا شريك له الخالق ، وهو جلّ وعلا وحده لا شريك له الّذى: ﴿له الحكم وإليه تُرْجعون﴾(١) .

وينبغى أن يكون للفظ الرّبّ المتّصل به ضمير المتكلّم العائد إلى المصطفى ﷺ فى القول : ﴿ قل إنّما حرّم ربّى ﴾ كبير دورٍ فى إشاعة جوّ الودّ والرّحمة والرّضا والامتنان بسبب دلالة لفظ الرّبّ على تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه . إنّ الرّبّ البرّ الرّحيم يحرّم الخبائث على عباده امتدادًا لتربيته جلّ وعلا لهم بنعمه وآلائه. وإنّ

---

(١) سورة القصص ٧٠ .

نعم الله تعالى كما تجلّت فى عمليّة الخلق للعباد تجلّت فى عمليّة الأمر لهم من ربّ العباد من أجل أن ينال الممتثلون لأمر ربّ العباد الحياة الطّيّبة فى الأولى ويوم يقوم الأشهاد . ومن البيّن أنّ لفظ الرّبّ يوجّه التّحريم وجهةً ترتاح معها نفس المتدبّر للقول : ﴿ قل إنّما حرّم ربّى الفواحش ﴾ لأنّ التّحريم منعٌ ترغب عنه النفس ، فإذا جاء لفظ الرّبّ حدث توازن النّفس لأنّها تفهم بأنّ الّذى يحرّم هو جلّ وعلا مربّى كلّ عبدٍ من عباده بنعمه وآلائه فينبغى أن يكون ثمّة خبائث محرّمة من أجل أن يكون المؤمن سليماً وصحيحاً حسًّا ومعنى .

ومن هو العاقل الّذى يخفى عليه الأذى الأكيد والكبير لتلك المحرّمات من الخبائث. فإذا أصرّ أفرادٌ أو جماعاتٌ أو أممٌ على إتيان تلك المحرّمات فإنّ ذلك ذنبهم وسيجازون عليه ، وحول هذا الجزاء أو العقاب تحدّثت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقم (٣٤)

قال تعالى : ﴿ ولكلّ أمّةٍ أجل . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾ .

للأمم آجالٌ قد حدّدها العليم الخبير على غرار آجال الأفراد . جاء فى سورة الأنعام[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ هو الّذى خلقكم من طينٍ ثمّ قَضَى أَجَلاً وأَجَلٌ مسمًّى عنده ثمّ أنتم تمترون ﴾ وجاء فى سورة الإسراء[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وإن من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذّبوها عذابًا شديداً . كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر أنّ لكلّ أمّةٍ مكذّبةٍ على جهة الخصوص أجلاً محدّدًا ومدّةً مضروبةً . فإذا جاء الأجل وانتهت المدّة لا يستأخرون ساعةً لتوبةٍ أو معذرةٍ فقد فات الأوان ولات حين مناص ، ولا يستقدمون ولا يأخذهم العزيز المقتدر قبل الموعد المحدّد كى تثبت عليهم الحجّة ويتأكّد الإنذار .

---

(١) الآية ٢ . (٢) الآية ٥٨ .

إنّ على المكذّبين أن يهتبلوا الفرصة باعتناق دين الإسلام واتّباع خير الأنام ﷺ قبل فوات الأوان وإلاّ كان الأخذ شديداً والعذاب أكيدًا . ولمّا كان النّاس فريقين من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، فمن هؤلاء من آمن ومن هؤلاء من كفر فإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تتحدّثان عن المؤمنين والكافرين على التّوالى ، وهاتان آخر آيات القسم وهما :

الآيتان رقم (٣٥ و٣٦)

قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتى فمن اتّقى وأَصْلَحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . والّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

للمرّة الرّابعة والأخيرة فى القسم يجىء فى الآية الكريمة الأولى هذا النّداء : ﴿ يا بنى آدم إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتى ﴾ وإمّا هى إنْ الشّرطيّة اتّصل بها الحرف ما[1] والمعروف أنّ جملة أتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على البعد الزّمانىّ أو المكانىّ أو المعنوىّ بعكس جملة جاء الّتى تستعمل دليلاً على القرب فى كلّ ذلك على نحو القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ إنّ القول المؤكّد : ﴿ إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم ﴾ يفيد بسبب مجىء جملة « أتى » البعد الزّمنىّ الّذى يجىء إثره الرّسل . والمعروف أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . وتبيّن الآية الكريمة مهمّة الرّسول وهى البلاغ فى القول : ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ ونستطيع أن نفهم من الجارّ والمجرور : ﴿ عليكم ﴾ منزلة بنى آدم الرّفيعة عند بارئهم جلّ وعلا الغنىّ عنهم ، البرّ الرّءوف بهم . ولهذا أرسل رسوله الكريم وأنزل قرآنه العظيم كى يرتّله الرّسول الأعظم ﷺ ترتيلاً ، وكى يؤمن به النّاس ، وكى يتّقوا النّار بإسلامهم ، ويعملوا الصّالحات حتّى يصلوا إلى مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان . والإحسان هو أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٤/٣٢٧ .

تكن تراه فإنّه يراك كما جاء فى الحديث الصّحيح[١] وإنّ المؤمنين المتّقين تتحدّث عنهم الآية الكريمة فى القول : ﴿ فمن اتّقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ إنّ المتّقين الّذين يعملون الصّالحات لا خوف عليهم فيما يستقبلون حينما يلحقون بالرّفيق الأعلى ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم فى الدّنيا من أهلٍ وأحبابٍ ومالٍ وجاه . إنّ الآخرة فى حقّهم خيرٌ من الأولى . وقد جاء فى سورة يوسف[٢] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾.

ومن ألطف ما يلاحظ على خطاب بنى آدم بشقّيهم المؤمن والكافر فى الآيتين الكريمتين ثنائيّة المعانى وذلك على النّحو التّالى بشأن بنى آدم يأتى رسل الله تعالى ويقصّون آيات الله تعالى . وبشأن المؤمنين هم يتّقون ويعملون الصّالحات فى الحياة الأولى . وهم فى الحياة الأخرى لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . وبشأن الكافرين هم مكذّبون لآيات الله تعالى الّتى أوحاها إلى حبيبه المصطفى ﷺ وهم مستكبرون عن عبادته جلّ وعلا وإفراده تعالى بالعبادة . إنّ هذه هى صفتهم فى الحياة الدّنيا وهى ذات شقّين ، تكذيبٌ واستكبار . وبسبب التّكذيب فى الأولى هم فى الآخرة أصحاب النّار . وبسبب الاستكبار عن عبادة الله تعالى فى الأولى هم فى الآخرة خالدون فى النّار وبئس القرار .

وهكذا تتجلّى ثنائيّة المعانى أو ثنائيّة موجات المعانى المتتابعة المتناسقة فى ترتيب نضيد ونظمٍ فريد .

---

(١) صحيح البخارىّ ١ / ٢٠ .

(٢) الآية ٥٧ .

[٤]

﴿ عذاب الظّالمين المكذّبين وثواب المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات ﴾

الآيات (٣٧ ـ ٤٣)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾
قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ
وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

تحدّثت الآيتان الكريمتان الأخيرتان من القسم السّابق عن المتّقين الّذين يعملون الصّالحات وثوابهم ، وعن المكذّبين المستكبرين وعقابهم . وتدور آيات هذا القسم التّالى حول عذاب الكافرين وثواب المؤمنين . إنّ السّياق يقرّر أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذبًا بنسبة الشّريك والصّاحبة والولد إليه جلّ وعلا وما إلى ذلك ، أو ممّن كذّب بآياته جلّ وعلا ، وفى مقدّمتها القرآن الكريم . إنّ أولئك ينالهم نصيبهم ممّا كتب الله تعالى لهم من شرورٍ وآثامٍ وعذاب . حتّى إذا جاءت أولئك الظّالمين رسل الله تعالى من الملائكة يتوفّونهم قالوا لهم : أينما كنتم تدعون من دون الله تعالى وتعبدون ؟ قالوا ضلّوا وغابوا عنّا واتّخذوا غير سبيلنا ، ﴿وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين﴾ وقيل لهم يوم القيامة ادخلوا النّار مع أممٍ كافرةٍ قد خلَتْ من قبلكم ومضت من الجنّ والإنس . كلّما دخلت أمّةٌ كافرةٌ لعنت أختها السّابقة الّتى أضلّتها . حتّى إذا تتابعوا فيها وتداركوا واجتمعوا كلّهم قالت الأمّة الأخرى الضّالة للأولى الضّالّة المضلّة يا ربّنا هؤلاء أضلّونا عن سواء السّبيل فآتهم عذاباً مضاعفاً فى النّار بسبب ضلالهم من ناحيةٍ وإضلالهم لنا من ناحيةٍ أخرى . قال الله تعالى : لكلٍّ منكم عذابٌ مضاعفٌ ولكن لا تعلمون .

وقالت الأمّة الأولى المضلّة للأخرى الضّالّة فما كان لكم علينا من فضلٍ حينما اقتفيتم آثارنا ولم تتبعوا الرّسل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون من ضلالٍ وآثام . وتأكيدًا لدخول الظّالمين النّار يقرّر السّياق أنّ الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى واستكبروا عنها لا تُفتّح لأرواحهم أبواب السّماء ولا يُرْفَعْ لهم دعاءٌ ولا عملٌ صالحٌ بسبب شِركهم حتّى يدخل حبل السّفينة الغليظ فى ثقب الإبرة . إنّ دخول ذلك الحبل الغليظ فى ثقب الإبرة مستحيل ، وإنّ دخول المجرمين الجنّة مستحيل ، وإنّ دخولهم النّار أكيد ، وإنّ لهم من جهنّم فراشًا من تحتهم وغطاءً من فوقهم . وهكذا

دخولهم النّار أكيد ، وإنّ لهم من جهنّم فراشًا من تحتهم وغطاءً من فوقهم . وهكذا يكون جزاء المجرمين والظّالمين . أمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فإنّهم أصحاب الجنّة ويخلدون فيها وذلك على غرار خلود الكافرين فى النّار . وإنّ مجىء هذه الجملة المعترضة : ﴿ لا نكلّف نفسًا إلاّ وُسْعَها ﴾ بين المبتدأ والخبر من مظاهر رحمة الله تعالى الواسعة . فلا يكلّف الله تعالى عباده من الأعمال إلاّ بما يسعهم ويبقى لهم معها فضل قوّة . ومن مظاهر النّعيم فى الجنّة أنّ الله سبحانه وتعالى ينزع ما فى صدور أصحابها ما فى صدورهم من حسدٍ وحقدٍ وبغضٍ فى الحياة الدّنيا ، وأنّ الأنهار تجرى من تحت قصورهم . ولا يملك أصحاب الجنّة إلاّ الشّكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة . إنّهم يحمدون الله تعالى حمدًا كثيرًا ويثنون عليه جلّ وعلا بما هو أهله وقد هداهم للعمل الصّالح الّذى نالوا جزاه وهم يعلنون بأنّهم ما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله تعالى الّذى أرسل خاتم أنبيائه وأشرف رسله بالدّين الحقّ ، وأنزل عليه أشرف كتبه . وفى الجنّة ينادَى على أصحابها أن تلكم الجنّة أورثكم الله تعالى إيّاها بما كنتم تعملون فى الحياة الدّنيا من أعمال صالحةٍ صادقة .

الآيـــة رقـم (٣٧)

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على كذبًا أو كذّب بآياته . أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب . حتّى إذا جاءتهم رسلنا يتوفّونهم قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذبًا[1] بنسبة الشّريك والصّاحبة والولد إليه جلّ وعلا وفعل الفاحشة والزّعم بأنّ الله تعالى أمر بها إلى غير

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٢/٢١٢ .